خصائص الحجاج القرآني

في آيات

نفي الشعر عن الرسول ﷺ

للدكتور

فهد بن محمد العمار

الأستاذ المشارك في كلية اللغة العربية

في قسم البلاغة والنقد

خصائص الحجاج القرآني في آيات نفي الشعر عن الرسول ﷺ

فهد بن محمد العمار

قسم البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية

الملخص :

جاء البحث في مقدمة ومبحثين، ذكرت في المقدمة أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وبينت فيها أهداف الدراسة، وخطة البحث ومنهجه، وأما المبحثان، فكان المبحث الأول تنظيرا لموضوع الحجاج، بعنوان: الحجاج: تعريفه وأهميته، ذكرت فيه تعريف الحجاج، وبينتُ أهميته في الدرس البلاغي، وحديثا موجزا عن وجوده في الدرس البلاغي لدى علماء البلاغة ، وذكرتُ فيه أيضا– شواهد الدراسة، وهي آيات نفي الشعر عن الرسول ﷺ، ولم يكن الحديث عن الحجاج في هذا المبحث مقصودا لذاته، بل كان بمثابة التوطئة، والمدخل للمبحث الثاني، وهو الدراسة التطبيقية لبيان خصائص الحجاج في القرآن الكريم من خلال شواهد الدراسة، وهو لب الدراسة، وهدفها، وهي الإضافة العلمية في هذا الموضوع، وجاء بعنوان: خصائص الحجاج القرآني في آيات نفي الشعر عن الرسول ﷺ، وهو الجانب التطبيقي في هذا البحث لشواهد الدراسة، وتوظيف لبلاغة الحجاج وغاياته في رد افتراءات المشركين في أن الرسول ﷺ شاعر، ذكرتُ فيه شواهد الدراسة موضعا موضعا، وهي خمسة مواضع، وقد تناولتها بالتفصيل والتحليل، منطلقا من كلام العلماء، ومفيدا منه في بيان خصائص الحجاج القرآني في هذا الآيات، مبيننا كيف حققت غرضها، في نفي الشعر عن الرسول ﷺ، فلم يكن الرسول شاعرا، ولم يكن القرآن شعرا، كما كانوا يزعمون ويفترون، فما هو إلا رسول كريم، والقرآن تنزيل من رب العالمين، كم تم بيان ذلك بأسلوب بلاغي في طياته كل معاني

الإقناع والإمتاع معا، وذلك هو سر إعجاز القرآن الكريم، وسبب عجز القوم عن معارضته، أو الإتيان بمثله.

ثم خاتمة البحث ذكرت فيها أهم النتائج التي توصلت إليها، ثم فهرس البحث، ذكرت فيه ثبت المراجع والفهارس، وفهرس الموضوعات .

الكلمات المفتاحية : خصائص – الحجاج القرآني – آيات – نفي – الشعر

The characteristics of the Qur'anic pilgrims in the verses of the negation of poetry about the Prophet

Fahd bin Mohammed al, Ammar

Department of Rhetoric and Criticism at the Faculty of Arabic Language

Abstract:

The research came in an introduction and two researches, mentioned in the introduction the importance of the topic, and the reasons for its choice, and showed the objectives of the study, the research plan and its methodology, and the two researches, the first research was a theory of the subject of pilgrims, entitled: Pilgrims: its definition and importance, in which it mentioned the definition of pilgrims, and showed Its importance in the rhetorical lesson, and a brief talk about his presence in the rhetorical lesson of the scholars of rhetoric, and also mentioned in it - the evidences of the study, which are verses denying poetry about the Prophet, and the talk about pilgrims in this research was not intended for itself, but was As the prelude, and the entrance to the second research, which is the applied study to show the characteristics of pilgrims in the Qur'an through the evidence of the study,

It is the core of the study, and its goal, which is the scientific addition in this subject, and came entitled: The characteristics of the Qur'anic pilgrims in the verses of the denial of poetry about the Prophet, which is the practical aspect of this research for the evidence of the study, and the use of the eloquence of pilgrims and its purposes in responding to the fabrications of the polytheist It is clear that the Prophet (pbuh) is a poet, in which the evidence of the study mentioned a place where, five places, and i

addressed them in detail and analysis, starting from the words of the scholars, and useful from it in the statement of the characteristics of the Qur'anic pilgrims in these verses, showing how they achieved their purpose, in The prophet was not a poet, and the Qur'an was not poetry, as they claimed and slandered, he is only a generous messenger, and the Qur'an is downloaded from the Lord of the Worlds, how much this was stated in a rhetorical manner with all the meanings of persuasion and enjoyment together, which is the secret of the miracle of the Holy Quran, and why people are unable to oppose it, or to do so.

Then the conclusion of the research mentioned the most important findings, and then the research index, in which it mentioned the proven references and indexes, and the index of topics.

Keywords: Characteristics - Qur'anic Pilgrims - Verses - Exile - Poetry

خصائص الحجاج القرآني في آيات نفي الشعر عن الرسول ﷺ

الحمد لله رب العالمين الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم، والحمد الله على نعمة البيان، ونعمة القرآن المعجز، أنزله – سبحانه – فهدى به نفوسا أقبلت عليه، وأقام الحجة على كل من أعرض وكفر، فكان معجزة خالدة إلى أن تقوم الساعة، والصلاة والسلام على خيرة البرية والأنام محمد بن عبدالله – صلى الله عليه وسلم– وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا، أما بعد:

فالحجاج من الموضوعات المهمة في الدرس البلاغي، ووسيلة من وسائل الإقناع والتأثير، وله أشكاله وأنماطه، وأساليبه التي يتكوّن منها، وينطلق منها، فضلا عن كونه ركيزة في البيان القرآني، فهي لفظة قرآنية، ومنهج قرآني له حضوره في كثير من القضايا والموضوعات التي دار حولها النقاش والجدال، والرفض والإنكار، فضلا عن أثره وتأثيره في النفوس والعقول، وقد كان الحجاج حاضرا في الدرس البلاغي قديما وحديثا، مما يدل على أهميته، وعناية العلماء به، ومن هنا جاء اختياري لهذا العنوان: خصائص الحجاج القرآني في آيات نفي الشعر عن الرسول ﷺ؛ للكتابة فيه، وبيان ما تميز به القرآن الكريم، فكان بذلك معجزا.

ولن يكون حديثي عن الحجاج عاما، وعلى سبيل الإطلاق، ولن يكون – كذلك – حديثا نظريا، بل ستكون دراستي عن الحجاج دراسة تطبيقية، وستكون آيات نفي الشعر عن الرسول – عليه الصلاة والسلام – هي مجال الدراسة، وميدان البحث، وهذا هو وجه تميز هذا البحث، والإضافة العلمية له، أنه دراسة تطبيقية لخصائص الحجاج القرآني في هذه الآيات، وفي هذا الموضوع،

والدراسات التطبيقية التحليلية من الأهمية بمكان في الدرس البلاغي، فهي تفيد من التنظير، وتنطلق منه، ولا تقف عند حده .

أهمية الموضوع وسبب الاختيار:

ثمة أسباب علمية دعتني إلى اختيار هذا العنوان، والكتابة فيه، ومن أهمها ما يأتي:

أولا: لأهمية الحجاج في الدرس البلاغي وحضوره الفاعل والمؤثر، فضلا عن كونه منهجا قرآنيا، وركيزة رئيسة انطلق منها في بيان حقائقه، وفي الرد على أهل الجحود والإنكار.

ثانيا: يتجلى في هذا البحث إبراز وظيفة مهمة جدا من وظائف البلاغة، وهي الإقناع والتأثير، ولن يكون ذلك إلا من خلال الحجاج، ولذا كانت البلاغة تفيد الإقناع، وتخاطب العقول.

ثالثا: تتجلى أهمية هذا البحث؛ في كونه دراسة تطبيقية من خلال النظر في خصائص الحجاج الوارد في الآيات التي تنفي الشعر عن الرسول – صلى الله عليه وسلم –، وهذه هي الإفادة الحقيقة من جهود علمائنا في هذا المجال، وتوظيفه في مثل هذه الدراسات البلاغية التطبيقية.

رابعا: يكاد يكون القرآن الكريم من أكثر الموضوعات التي طال حوله جدال وإنكار من قِبل المشركين في العهد المكي، ورموه بكل فرية ونقيصة، ورد عليهم القرآن، وفند كل شبههم، بأسلوب بلاغي حجاجي توافرت فيه كثير من الخصائص الموضوعية والأسلوبية.

خامسا: في هذا الموضوع بيان لحقيقة رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وبيان لحقيقة القرآن الكريم، وما تضمنته من معارف وهدايات، فهو ليس شعرا، والرسول – عليه السلام – ليس شاعرا، وقد جاء بيان هذه الحقائق بأساليب بلاغية، وأدوات حجاجية.

أهداف الدراسة:

تتجلى الأهداف التي أسعى إلى تحقيقها فيما يأتي:

أولا: حصر شواهد الدراسة، وبيان المكي منها والمدني، ومعرفة ما يتميز به كل شاهد في خصائصه الأسلوبية المتعلقة بالحجاج .

ثانيا: بيان الأسس والمنطلقات الحجاجية التي انطلق منها القرآن الكريم في بيان نفي الشعر عن الرسول – صلى الله عليه وسلم –

ثالثا: معرفة الخصائص الموضوعية والأسلوبية التي شكلت ظاهرة الإقناع في شواهد الدراسة، وبيان أثرها في إبراز حقيقة الرسول والقرآن معا، فهو ليس بشاعر، وليس القرآن شعرا.

رابعا: الكشف عن الدوافع الحقيقة وراء اتهام المشركين للرسول – عليه الصلاة والسلام– بالشعر، وبيان المقاصد الحقيقية للرسول ولرسالته.

منهج الدراسة:

ستقوم الدراسة على المنهج الوصفي، القائم على الاستقراء والتحليل، الاستقراء لخصائص الحجاج القرآني للآيات المتضمنة نفي الشعر عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، وتحليل تلك الخصائص تحليلا بلاغيا، لمعرفة ما تضمنته من أساليب في تحقيق غرض الحجاج.

خطة البحث:

جاء البحث في مقدمة ومبحثين، ثم خاتمة البحث وفهارسه.

ذكرتُ في المقدمة أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، وبينت فيها أهداف الدراسة، وخطة البحث ومنهجه.

والمبحث الأول بعنوان: الحجاج: تعريفه وأهميته، ذكرت فيه ما يأتي:

أولا: تعريف الحجاج.

ثانيا: أهمية الحجاج في الدرس البلاغي.

ثالثا: لمحة موجزة عن وجود الحجاج في الدرس البلاغي لدى علماء البلاغة.

رابعا: آيات نفي الشعر عن الرسول ﷺ،

المبحث الثاني: بعنوان: خصائص الحجاج القرآني في آيات نفي الشعر عن الرسولﷺ

ثم الخاتمة، ذكرت فيها نتائج البحث التي توصلت إليها، وبعض التوصيات العلمية.

وبعد فهذه هي أهداف البحث وغاياته التي أسعى إلى تحقيقها وبيانها – بإذن الله– فإنْ تحقق ذلك فهو توفيق من الله وفضل، فهو صاحب الفضل والجود، والله أسأل أن يأخذ بيدي، ويفتح علي، ويهدني للحق والصواب، فهو نعم المولى ونعم المسؤول، وصلى الله وسلم على نبينا محمد .

المبحث الأول: الحجاج: تعريفه وأهميته

أولا: تعريف الحجاج

حتى يتبين المراد من الحجاج فلا بد من الرجوع إلى المعجمات اللغوية، لبيان معناه، ومعرفة دلالاته اللغوية، فأصل مادة الحجاج: حجج، تدل على طرفين، غالب وهو الحاج، والمغلوب وهو المحجوج، يدل على ذلك قول الزمخشري: ﴿حاج خصمه فحجّه، وفلان خصمه محجوج﴾ [١]، وفيها معنى: الغلبة والانتصار، وهو معنى ظاهر في الحجاج، بل هي الغاية التي يسعى إليها المحتجون؛ ليتبين بطلان رأيه، وسوء موقفه، وفيها معنى: الحجة والمحجة وهو الدليل والبرهان [٢]، وفي هذا دلالة أن هذا الاحتجاج يقوم على أسس علمية تنطلق من الأدلة والبراهين، فليس هو جدالا عقيما، بل علمي يهدف إلى بيان الحقائق من خلال الأدلة والبراهين.

وفي الحجاج خصومة ومنازعة، وتخاصم وتجادل [٣]، وهذا المعنى حاضر في الحجاج، فهو لا يكون بين فريق واحد، ولا يكون بين المتفقين ولا المتحابين، بل يقع بين فريقين بينهما العداوة والشحناء، والخصومة والمنازعة، ولذا يأتي الجدل مع الحجاج كثيرا، حتى قيل بترادفهما، ودلالة أحدهما على الآخر [٤]،

ولذا فيوجد الحجاج في سياق جدلي دائما، يضم أطرافا عدة ببينها خصومة ومنازعة، ويدلي كل طرف بحجته، ويلقي شبهته، مضمنة أدلته وبراهينه؛

(١) أساس البلاغة: ١٦٩/١

(٢) انظر: مختار الصحاح: ٧٦

(٣) انظر: لسان العرب: ٢٢٦

(٤) انظر: الحجاج في القرآن: ١٦ .

بحجة أفحام الخصم، ونقض كلامه، ورد دعواه، مخاطبا العقول والأفهام، ولذا فهو خطاب إقناعي تأثيري، فهو من العقل يبدأ وإليه ينتهي؛ لما فيه من حجج وبراهين، وحقائق ومستندات، ولذا فيقوم ((الحجاج على مناقشة الآراء مناقشة نظرية محضة لغاية التأثير العقلي المجرد)) (١)، وغرض الإقناع، وتغيير القناعات حاضر في الحجاج، هما متلازمان، ولا يكاد ينفك أحدهما عن الآخر

والحجاج وإن كان عملية عقلية إلا إنه يتخذ من اللغة أسلوبا له، ففي طياته كثير من الأساليب البلاغية، ويكون على مستوى عالٍ من الفصاحة والبيان، ولذا فهو يحقق الإقناع والإمتاع معا، وهي خاصية فريدة من خصائص الحجاج.

ثانيا: أهمية الحجاج في الدرس البلاغي.

الحجاج من البلاغة في الصميم، وله أثره وتأثيره، وهو غرض بلاغي يسعى المتكلم إلى تحقيقه، فهو وظيفة من وظائف البلاغة التي يقتضيها المقام، ويحرص عليها البليغ، ومن أجل تحقيق هذه الغاية ترى المتكلم يوظف الأساليب البلاغية، وينتقي منها ما يحقق غرضه على أكمل وجه.

ولذا فالحجاج جزء رئيس من البلاغة العربية، وغرض من أغراضها المهمة، فقد اهتمت البلاغة بالمخاطب اهتمامها كبيرا، فكان نصب عينيها، ومحور اهتمامها، ولها معه أحوال متعددة، وأغراض شتى، ومنها: مخاطبته، ومحاورته، واستمالته نحوها، وإقناعه ومجادلته.

هذه هي أهمية الحجاج، وتلك بلاغته في لغة العرب بعامة، وله في القرآن الكريم شأن مغاير، ومنزلته الرفيعة، وبلاغته الخاصة به، حتى تميز به، وبها

(١) الحجاج في القرآن: ١١

صار معجزا، وصارت له خصائصه وسماته التي تميزه عن غيره، ولذا التفت الدارسون إلى بلاغة الحجاج في القرآن الكريم، فخرجوا بكثير من الأسرار البلاغية، والنكت البيانية، وبجملة من الخصائص العامة التي تميز القرآن عن غيره في حجاجه، وطريقة أسلوبه في المحاورة والإقناع، بل وإفحام الخصم، ومن الكتب الرائدة والمتميزة في هذا الموضوع، كتاب (الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية) للدكتور عبدالله صولة، وفي عنوانه دلالة وتأكيد على أن الحجاج في القرآن ظاهرة أسلوبية، وغرض حاضر، فتميز عن غيره، وصارت له خصائصه الفريدة التي لا يشاركه فيها غيره، وقد أبان الدكتور عبدالله صولة معنى أن يكون الحجاج خاصية أسلوبية للقرآن الكريم بقوله: ﴿ ليس المقصود بقولنا " خصائص القرآن الأسلوبية إلا ظواهره اللغوية، وقد تحولت بحكم ترددها وتكرارها وعودتها فيه إلى أسلوب في القول يميزه... إن للقرآن بناء على هذا خصائص أسلوبية في مستوى المعجم... وداخل هذا المعجم كلمات بعينها تتكرر ... كما أن للقرآن خصائصه الأسلوبية على صعيد الصورة، ففيه صورة فنية تتكرر هي نفسها، أو قريبا منها، ولكنها حتى وإن اختلفت موادها وطرائق بنائها فإنها ترد إلى وظيفة واحدة هي الوظيفة الحجاجية ﴾ (١)

ثالثا: لمحة موجزة عن وجود الحجاج في الدرس البلاغي

للحجاج حضوره في الدرس البلاغي، فهو جزء رئيس من البلاغة وموضوع مهم من موضوعاتها، وركيزة أساسية وغرض وضعه المتكلم نصب عليه وهو يحاور ويجادل المخاطب، يدل على ذلك إشارة متقدمة من ابن المقفع في

(١) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية: ٥٢

تعريفه للبلاغة فذكر أنها ﴿ اسم جامع لمعانٍ تجري في وجوه كثيرة ﴾ [١]، ثم بيّن تلك الوجوه وعددها بقوله: ﴿ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون في الاحتجاج، و منها ما يكون جوابا، ومنها ما يكون ابتداء ﴾ [٢]

وقد أخذ حقه ونصيبه من عناية العلماء واهتماماتهم في مؤلفاتهم ومناقشاتهم، فقد ورد ذلك عند حديث البلاغيين عن مصطلح (المذهب الكلامي)، ويتبين المراد منه، وعلاقته بالحجاج من خلال تعريف الخطيب القزويني له، فقد ذكر المراد منه في قوله: ﴿ أن يورد المتكلم حجة على ما يدعيه على طريق أهل الكلام ﴾ [٣]، ولابن الأثير إشارة متقدمة ومهمة عن الحجاج، مبينا أنه الغرض من البلاغة، فعليها مداره، وبه تكون غايتها، يقول: ﴿ مدار البلاغة كلها على استدراج الخصم إلى الإذعان والتسليم، لأنه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرائقة، ولا المعاني اللطيفة الدقيقة دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها ﴾ [٤]، وفي كلامه إبراز لمقام الحجاج، وإعلاء لشأنه، ولكن من الصعب التسليم له بأن مدار البلاغة كلها عليه، ولكن يظل غرضا مهما من أغراضها.

كما تحدث عنه علماء القرآن في موضوع (مجاراة الخصم)، وهو وثيق الصلة بالحجاج، بل هو من آلياته، ومن الوسائل والأساليب التي يلجأ إليها

---

(١) البيان والتبين: ٦٣/١

(٢) البيان والتبين: ٦٣/١

(٣) الايضاح في علوم البلاغة: ٣٦٠

(٤) المثل السائر: ٦٤/٢

المتكلم في الحجاج، وقد عرفه السيوطي بقوله: ﴿ مجاراة الخصم؛ ليعثر بأن يسلم بعض مقدماته حيث يراد تبكيته وإلزامه ﴾ (١)

وقد جاء هذا البحث لبيان أهمية الحجاج، وبيان خصائصه في آيات نفي الشعر عن الرسول – عليه الصلاة والسلام–؛ إيمانا مني أن للقرآن طريقته الخاصة التي سلكها في حجاجه مع المشركين في رد دعواهم، ونفي مزاعمهم في الرسول، فقد زعموا ظلما وبهتانا أن الرسول شاعر، وأن القرآن شعر فسلك معهم مسلكا فريدا بخصائصه الأسلوبية والموضوعية في حجاجهم وإقناعهم، ومحاجتهم والرد على حججهم، فجاءت هذه الدراسة لتكشف بلاغة القرآن وإعجازه، وبيان قوة أثره وتأثيره في عقول المعارضين، قوة في التأثير، وقوة في الإقناع، وقوة في الحجاج؛ من أجل بيان الحقائق، وكشف الدسائس، وأما المؤمنون فلكي يزدادوا إيمانا مع إيمانهم، ويقينا مع يقينهم بأنه رسول من عند رب العالمين، وأنه ليس بشاعر ولا ساحر، ومن خلال هذه الدراسة والقيام بمتطلباتها حق قيام ستتضح خصائص القرآن الأسلوبية في تحقيق غرض الحجاج في آيات الدراسة.

(١) معترك الأقران في علوم القرآن: ٣٥١/١

رابعا: آيات نفي الشعر عن الرسول ﷺ

الموضوع الأول: من سورة يس

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

الموضوع الثاني: من سورة الأنبياء

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

الموضوع الثالث: من سورة الصافات

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾

الموضوع الرابع: من سورة الطور

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

الموضوع الخامس: من سورة الحاقة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

المبحث الثاني: خصائص الحجاج القرآني في آيات نفي الشعر عن الرسول ﷺ

الموضع الأول: قوله – تعالى – ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [يس: ٦٩ – ٧٠]

جاءت هذه الآيات ردا على افتراءات المشركين، وتنزيها من الله –سبحانه تعالى – لرسوله –محمد صلى الله عليه وسلم – مما رماه به المشركون، فقد زعموا وافتروا – زورا وبهتانا – أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر فقال – تعالى– مفندا تلك المزاعم كلها ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ ﴾[1]، والضمير في

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦٩٨/١

﴿عَلَّمْنَاهُ﴾ عائد إلى النبي ﷺ، ولم يجر له ذكر في الآيات التي قبلها، فهو من الإضمار في مقام الإظهار، ولهذا الإضمار دلالته في هذا المقام، فهو – عليه الصلاة والسلام– حاضر دائما وأبدا، وكالمذكور ضمنا[1]،، فالقرآن والرسول – عليه الصلاة والسلام – من أكبر الموضوعات حضورا لدى هؤلاء المشركين، طال حولهما نقاشاتهم، وكثر فيهما جدالهم، ولحقتهما كثير من الافتراءات والأقاويل الباطلة، ومن هنا جاءت هذه الآية بهذا النفي القاطع، فليس القرآن شعرا، ولا الرسول شاعرا، ولن تجد أبلغ قولا من نفي ذلك كله من قوله – تعالى – ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ بما تضمنته من حجاج ومحاجة، ومن بيان لضلالاتهم، ورد على افتراءاتهم .

وفي هذا الرد والنفي بيان لحاله – عليهم الصلاة والسلام – فما هو بشاعر، ولا القرآن شعر، إنما هو رسول رب العالمين، والذي معه قرآن أنزله عليه من أرسله، وقد جاء في سبب نزول هذه الآية ((أن كفار مكة قالوا: إن محمدا شاعر، وما يقوله شعر، فأنزل الله تكذيبا ﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ أي ما يتسهل له ذلك، وما كان يتزن له بيت من شعر، حتى إذا تمثل ببيت جرى على لسانه منكسرا)) [2]

وقد جاء رد مزاعمهم وتفنيدها بأسلوب النفي، وما علمناه الشعر، فكان وسيلة ناجعة من وسائل الحجاج، فحقق الغاية، وأصاب الهدف، والمعنى: ((وما علمناه الشعر؛ حتى يأتي بشعر، وهذا رد لقولهم إنه شاعر أتى بشعر

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن: ٩٥٠/١٢

(٢) معالم التنزيل في تفسير القرآن ٢٦/٧

قاسوه على من يشعر بقراءة الدواوين، وكثرة حفظها، وكيف يشابه ما نزل عليه الشعر؟! وليس منه لا لفظا؛ لعدم وزنه وتقفيته، ولا معنى؛ لأن الشعر تخيلات وهذا حكم وعقائد وشرائع وحقائق ﴾ (١)

وفي هذا النفي إثبات وإخبار من الله وتقرير أنه ما علمه الشعر، فأين القرآن بهداياته ومواعظه وزاجره من الشعر وخيالاته فأنى يلتقيان؟! فأين القرآن من الشعر، وهو ﴿ ضرب من ضروب الكلام ... وهو يسير مع العواطف والأهواء، ولا يتبع ما يمليه العقل والمنطق الصحيح، ومن ثم كان مستقر الأكاذيب والمبالغات في الأهاجي والمدائح والتفاخر والتنافر فإذا غضب الشاعر أقذع في القول، وبالغ في الذم وضرب بالحقيقة عرض الحائط، ولا يرى في ذلك ضيرا، وإذا هو استرضى بعد قليل رفع من هجاه إلى السماكين، وأدخله في زمرة العظماء الشجعان، أو الكرماء الأجواد ... حتى لقد بلغ الأمر بهم أن قالوا: أعذب الشعر أكذبه، والقرآن الكريم آداب وأخلاق، وحكم وأحكام وتشريع، فيه سعادة البشر في دنياهم وآخرتهم، فرادى وجماعات فحاشا أن يكون شعرا، أو أن يمت إليه بنسب﴾ (٢)، ففي هذا النفي الجازم، والرد القاطع رد على مزاعمهم في القرآن الكريم التي ترى أنه افتراء وتخيلات، وشعرا وأباطيل، وليس وحيا منزلا من رب العالمين، فكان ردا بليغا في أن يكون القرآن شعرا، وأن يكون الرسول شاعرا.

وصدق الله فلم يعلمه الشعر، ولم يجره على لسانه، فليس الشعر من طبعه، ولا تقتضيه جبلته، ولذا كان لا يقيم أوزانه، فكان لا يحسنه ولا يستقيم

(١) محاسن التأويل: ٨/ ١٩٣

(٢) تفسير المراغي: ٣٠/٢٣

له، ولذا ﴿ ورد أنه – عليه الصلاة والسلام – كان لا يحفظ بيتا على وزن منتظم، بل إن أنشده زحّفه أو لم يتمه﴾ (١)

وقد باين كلامه – عليه الصلاة والسلام – الشعر لفظا ومعنى، فلم يكن كلامه مقفى ولا موزونا، ولم تكن مضامينه مضامين الشعراء، ولا يهيم بأدويتهم، ولا يسير على خطاهم، وهم أعلم الناس بالشعر وضروبه، وبأحوال الشعراء وطقوسهم، فلم يكن الرسول شاعرا، والقرآن شعرا، كيف والشعر موزون مقفى وله معانيه وأغراضه الخاصة به، فضلا عما يكون فيه من هزل وفكاهة ومجون، فأين ذلك كله من معاني القرآن وأغراضه؟ وما يكون فيه من هدايات ومواعظ، فأين﴿ هو عن الشعر؟ وأين المعاني التي ينتحيها الشعراء عن معانيه؟ وأين نظم كلامهم من نظمه وأساليبه؟ فإذا لا مناسبة بينه وبين الشعر إذا حققت﴾ (٢)، لكنهم لم يحققوا، ولم يدققوا النظر، ولكم يكلفوا أنفسهم النظر في ذلك كله، ولكنهم قالوا ذلك ظلما وعدوانا، وإلا فمن الغرائب والعجائب، بل والعناد "والوقاحة أن يصدر عن أهل اللسان والبلاغة قول مثل هذا، ولا شبهة لهم فيه بحال، فما قولهم ذلك إلا بهتان﴾ (٣)

وقد بسط الحجاج نفوذه، وظهرت قوته وأساليبه في محاججة القوم، وبيان زيف دعواهم من خلال هذه الآية بما تضمنته من أساليب، ومن قوة في البيان، وبلاغة في الرد والإفحام، تجلى ذلك وتحقق من صدر الآية التي افتتحت بها في قوله – تعالى–: ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ ﴾ فقد جاء الرد بأسلوب

(١) تفسير القرآن العظيم: ٥٨٨/٦ .
(٢) تفسير القرآن العظيم: ٥٨٨/٦ .
(٣) الكشاف: ٤: ٢٦ .

((الكناية بنفي تعليم النبي ﷺ الشعر؛ لما في ذلك من إفادة أن القران معلَّم للنبي – صلى الله عليه وسلم– من قِبل الله – تعالى–، وأنه ليس بشعر، وأن النبي ﷺ ليس بشاعر ... والمعنى: نحن علمناه القران، وما علمناه الشعر، فالقرآن موحى إليه بتعليم من الله، والذي أوحى به إليه ليس بشعر، فالمعنى: إن القران ليس من الشعر في شيء، فكانت هاته الجملة ردا على قولهم هو شاعر على طريقة الكناية؛ لأنها انتقال من اللازم الى الملزوم)) (١)

ولمحمد بن الطاهر بن عاشور إشارة مهمة، ولمحة خاطفة إلى ما جاء في هذه الآية من الحجاج والمقارعة لهؤلاء المشركين في نفي أن يكون الرسول ﷺ شاعرا، أو أن يكون القرآن شعرا، قال – بعد أن بيّن مواقف المشركين من القرآن، وبعد بيان افتراءاتهم في الرسول ﷺ، وفي إنكارهم لحقيقته –: ((وحتى قرعهم بهذه الآية ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾)) (٢)، وفي لفظة قرعهم إشارة إلى أن مضمون هذه الآية وأسلوبها قائم على الحجاج، ومخاطبة العقول، ومقارعة الحجة بالحجة، من خلال تفنيد الأباطيل، وإقامة الحجج والبراهين.

ومن هنا تتبين حكمة رب العالمين في نفي الشعر عن رسول الله فلم يكن شاعرا، قضية حُسمت بقوة، وبهذا النفي القاطع، وفي هذا النفي القاطع بلاغة وقوة اقتضاه المقام؛ تحقيقا لغرض الحجاج، وقطع لكل فرية، ورد لكل بهتان؛

(١) التحرير والتنوير: ٥٦/٢٣

(٢) التحرير والتنوير: ٥٧/٢٣

﴿ لئلا تدخل الشبهة على قوم فيما أتى به من القرآن، فيقولون قوي على ذلك بما في طبعه من الفطنة للشعر ﴾ (١)، ومن هنا جاء هذا النفي القاطع حماية للقرآن الكريم، وبيانا لإعجازه، ودفاعا عن مقام النبوة، وردا لفتراءاتهم عن رسول الله ﷺ، وليس الغرض منه الغض من مكانة الشعر، ولا الخفض من قيمته؛ إذ إن تنزيه ﴿ النبي ﷺ عن قول الشعر من قبيل حياطة معجزة القران، وحياطة مقام الرسالة، مثل تنزيهه عن معرفة الكتابة، قال أبو بكر بن العربي هذه الآية ليست من عيب الشعر، كما لم يكن قوله﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ﴾ من عيب الخط، فلما لم تكن الأمية من عيب الخط، كذلك لا يكون نفي النظم عن النبي من عيب الشعر ﴾ (٢).

وقد جاء قوله ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾ امتدادا لنفي الشعر عنه في قوله ﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ ﴾، وامتدادا كذلك في غرضها، وفي نفي الشعر عن رسول الله ﷺ، ولها أثر بالغ في تحقيق غرض الحجاج، وبيان ما عليه القوم من الآراء الفاسدة، والاتهامات الباطلة، يتجلى ذلك من خلال معنى ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ﴾، ودلالاتها في هذا المقام، فما ينبغي لرسول الله أن يكون شاعرا، ولا يليق به ذلك؛ لمكانته ومنزلته ، ولا يصح، بل ولا يتأتى ذلك له، فهو ﴿ من جنس المحال أن يكون شاعرا؛ لأنه رشيد مهتد، والشعراء غاوون يتبعهم الغاوون ﴾

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٥٣١/٣

(٢) التحرير والتنوير: ٦٤/٢٣

[1]، وفي قوله " من جنس المحال" تأكيد للنفي الذي بدأت به الآية، وتحقيق لمعنى الحجاج، وإظهار له، فقد حاجهم، وبيّن استحالة هذا الأمر، فمحال أن يكون رسول الله ﷺ شاعرا.

وقوله ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ جملة معترضة، ولها دلالتها وأثرها وتأثيرها في تحقيق غرض الحجاج، وفي رد مزاعم المشركين وافتراءاتهم، فهي﴿ جملة معترضة بين الجملتين المتعاطفتين قصد منها اتباع نفي أن يكون القران الموحى به للنبي شعرا، بنفي أن يكون النبي شاعرا فيما يقوله من غير ما أوحى به إليه﴾ [2]، ولو لم يكن من نفي الشعر عن رسول الله ﷺ إلا هذه الجملة البليغة ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ﴾ لكفى، ففيها الكفاية والحجة البالغة، في نفي كل تهمة، ورد كل شبهة، فقد بلغت مبلغا عظيما، ومنزلة كبيرة في حجاجهم، ومحاجتهم، ومجادلتهم بالتي هي أحسن، فما ينبغي لرسول الله ﷺ أن يكون شاعرا، ولو كان شاعرا – كما يذكر الرافعي–: ﴿ لذهب مذاهب العرب التي تبعث عليها طبيعة أرضهم، والتكلف لها، ونافس فيها، ثم لجاراهم في ذلك إلى غايته؛ حتى لا يكون دونهم فيما تستوقد له الحمية، وما هو من طبع المنافسة والمغالبة... ثم لا يكون من جملته إلا أن ينصرف عن الدعوة، وعما هو أزكى بالنبوة، وأشبه بفضائل القرآن ... فانظر هل ترى شيئا غير إلهي هذا التدبير المحكم، والصنع العجيب؟ وهل ترى ذلك أعجب من أن الله –

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦٩٨/١

(٢) التحرير والتنوير: ٦٢/٢٣

تعالى- منع نبيه تصحيح وزن الشعر، وجعل لسانه لا ينطق به، إذ وضعه موضع البلاغة من وحيه، ونصبه منصب البيان لدينه ﴾ [1]،

ومن هنا يتبين بلاغة قوله ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ ﴾، وعلاقتها الوثيقة بالحجاج، ومحاجتهم، ولذا فهي﴿ أبلغ في الحجة على من زعم أنه كاهن، ومرة ساحر، ومرة شاعر... فمنعه الله -تعالى- من الشعر؛ تكرمة له لما كان الشعر ديدن أهل عصره الذي بُعث فيه، وحظُر عليه ذلك؛ دلالة على صدقه، وشهادة على بطلان قول المبطلين في حقه، وتنزيها له من افترائهم عليه، وزيادة في الحجة له ﴾ [2]، ولذا كله ما ينبغي لرسول الله ﷺ أن يكون شاعرا، ومن خلال ما تقدم تتبين حكمة نفي الشعر عن رسول الله، فذلك لا يمكن له، ولا يتأتى منه؛ لتكون الحجة أثبت، والشبهة أدحض، وإلا فأن الشعر أحب إلى رسول الله ﷺ من كثير من الكلام كما يقول الزمخشري.[3]

ولابن رشيق القيرواني كلام نفيس في بلاغة هذه الآية، وبيان حكمة نفي الشعر عن رسول الله، وبيان ما تضمنه قوله﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ ﴾ من حجاج للمشركين، وغلبة عليهم وقهر، يقول: ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ ﴾: أبلغ في الحجة، وبلغ في الحاجة، والذي عليه في ذلك أكثر مما له؛ لأن الله – تعالى- إنما بعث رسوله أميا غير شاعر إلى قوم يعملون منه حقيقة ذلك حين استوت الفصاحة، واشتهرت البلاغة آية للنبوة، وحجة على الخلق،

(١) تاريخ آداب العرب: ٢٠٣/٢

(٢) نضرة الإغريض في نصرة القريض: ٧٢/١

(٣) انظر: الكشاف: ٢٦/٤

وإعجازا للمتعاطين، وجعله منثورا؛ ليكون أظهر برهانا؛ لفضله على الشعر الذي من عادة صاحبه أن يكون قادرا على ما يحبه من الكلام، وتحدى جميع الناس من شاعر وغيره بعمل مثله فأعجزهم ذلك ﴾ .(١)

وما بعد النفي إلا الإثبات، فجاء مضمون قوله ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ ﴾ مغايرا لما قبلها، فكل ما تقدمها كان نفيا، وذلك في قوله ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ ﴾ وفي قوله – أيضا-: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ ﴾ وبعد ذلك كله جاء الإثبات ببيان الحقائق، وتصحيح المفاهيم، ورد الافتراءات، ومن هنا تظهر بلاغة الحجاج في القرآن الكريم، وتتحقق أغراضه، فقد تنوعت أساليبه، وتعددت مضامينه في إبراز أغراضه وتحقيقها، وفي محاججة القوم، وفي دحض شبهاتهم في رد دعواهم أن الرسول ﷺ شاعر.

واللافت للنظر أن الإثبات هنا في بيان حقيقة القرآن الكريم، فما هو إلا ذكر وقرآن مبين، في حين كان النفي حديثا عن رسول الله ﷺ، فما هو بالشاعر، وما علمه ربه الشعر، وما ينبغي له الشعر، ولا يتأتى منه ذلك ولا يمكنه، وفي هذا دلالة أن موقفهم من الرسول – عليه الصلاة والسلام – وافتراءهم له بالشعر وأنه شاعر أن هذا الأمر لم يكن مقصودا لذاته، فقد أرادوا منه التنقص من القرآن، ورده بأنه شعر جاء به محمد من عند نفسه، وتقوله وافتراه، ونسبه إلى رب العالمين، فما هو كلام منزل، ولا قرآن كريم، وهذا من خبثهم وشدة دهائهم، ولذا جاء الرد عليهم ببيان حقيقة القرآن الكريم، بطريق الإثبات، بالجزم القاطع، بأن القرآن ليس شعرا، وليس مفترى، وليس أساطير

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه: ١/ ٢٠ .

الأولين، ولم يأت به الرسول ﷺ من تلقاء نفسه، ولا اختلقه ولا تقوله، بل هو ﴿ ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾، فقد دحض القرآن شبهاتهم، ورد افتراءاتهم، وبيّن من خلال هذا الحجاج حقيقة القرآن الكريم، وذكر مصدره، فالقرآن الكريم ذكر وليس شعرا، ﴿ ذكر من الله – تعالى– يوعظ به الإنس والجن كما قال إنْ هو إلا ذكر للعالمين، وما هو إلا قرآن، كتاب سماوي، يُقرأ في المحاريب، ويُتلى في المتعبدات، وينال بتلاوته والعمل بما فيه فوز الدارين، فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين!﴾ (١)، وفي قوله: "فكم بينه وبين الشعر الذي هو من همزات الشياطين!" إشارة إلى غرض المشركين من الافتراء بكون الرسول شاعرا، فغرضهم ومقصدهم القرآن الكريم، بسلب ما تميز به، والتنقص من قدره، دلالة على عجزهم عن معارضته والإتيان بمثله، ولكن القرآن لهم بالمرصاد فرد افتراءاتهم، وبيّن زيف دعواهم ببيان حقيقة القرآن الكريم.

وقد جاء بيان حقيقة القرآن، ورد افتراءات المشركين، من خلال أسلوب القصر في قوله: ﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ وفي أسلوب القصر قوة وتأكيد؛ لما يتضمنه من نفي وإثبات، ومن هنا تبرز أهميته في تحقيق غرض الحجاج في مقام بيان حقيقة القرآن، وحقيقة الرسول – عليهم الصلاة والسلام –، فما هو بشاعر، ولا القرآن بشعر، وكان الرد بأسلوب القصر – بما تضمنه من نفي وإثبات – بليغا شاملا، شمل مواقفهم كلها من الرسول والقرآن، فنفاها، وأثبت ما يناقضها، فما هو شعر بل هو ذكر وقرآن مبين، قوة في المعنى، وتأكيد للمضمون، مع جزالة اللفظ، وقِصر العبارة، وجمال الإيجاز.

(١) الكشاف: ٤:٢٧

ومما يبرز قوة الحجاج، ويظهر أثره في هذا المقام أن كان القصر هنا بطريق الاستثناء بعد النفي، ولهذا الطريق خصائصه وقوته وحضوره في المخاصمات المنازعات؛ لما يتميز به دون سائر طرق القصر، وقد أبان البلاغيون عن خصائصه، وبيان ما تفرد به والمقامات التي يأتي فيها، فيعد هذا الطريق﴿أصل الباب، وأقوى الطرق، وكثير من الطرق يُفيد القصر بالحمل عليه ﴾ [١]، يدل على قوة هذا الأسلوب أنه يأتي في المقامات التي يكون فيها الشك والإنكار في المقامات التي يجهلها المخاطب أو يُنكرها[٢]، ولذا فهو وسيلة ناجعة ومؤثرة في الحجاج والخصومات، وله حضوره وتأثيره ولما كان هذا الطريق بهذه القوة وبهذه المثابة فقد اختص بالأمور التي يُنكرها المخاطب، ويشك فيها [٣]، فلا يأتي هذا الطريق غالباً – إلا ﴿ في المقامات العنيفة المستنفرة، جهيرة النبرة، قوية الموقع، حين تتشابك مواقف التأثير الوجداني مع الإقناع العقلي ﴾[٤]، ومن هنا – يتجلى سرُّ مجيء هذا الطريق في مقام الرد على شبه المشركين، وفي بيان حقيقة القرآن الكريم، وبيان حقيقة الرسول – عليه الصلاة والسلام–، ومجيئه بهذا الطريق أيضا دلالة على أن إنكار القوم بلغ حدا عظيما، ومبلغا كبيرا، فصار القرآن ومن جاء به شغلهم الشاغل، لا يكلون ولا يملون في رميه بكل الافتراءات، والنيل منه استطاعوا إلى ذلك سبيلا، دلالة على إنكارهم بلغ مبلغه، وجحودهم وصل غايته، فجاء الرد بليغا دامغا على تلك الشبه، وعلى تفنيد تلك الافتراءات، وبيان بطلانها وتهافتها،

(١) أساليب القصر في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية : ١٦٦ .
(٢) انظر : دلائل الإعجاز : ٣٣٢ .
(٣) انظر : دلائل الإعجاز : ٣٣٢ .
(٤) أساليب القصر في القرآن : ١٦٦ .

بهذا الأسلوب القوي البليغ المؤثر الذي يجتث جذور الشك والإنكار من قلوبهم، ويجعله أثرا بعد عين

وقد ازداد هذا القصر قوة وتأثيرا، أنه كان نوعه قصر قلب(١)، ولهذا النوع دلالته في مقام الحجاج وبيان الحقائق، فقد رد ونسف ما كان سائدا في عقولهم عن القرآن بأنه شعر، وقلب الأمور رأسا على عقب، وأعادها إلى نصابها، ووضعها الطبيعي، فليس هو سحرا ولا شعرا، بل ذكر وقرآن مبين، وقد آتى القصر بهذا الطريق وبهده الدلالة ثماره في تحقيق غرض الحجاج في نفي الشعر عن رسول الله ﷺ، ببيان حقيقة القرآن الكريم الذي جاء به ما هو إلا ذكر وقرآن مبين.

وفي وصف القرآن بأنه "مبين" قوله ﴿ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴾ أثر في تحقيق غرض الحجاج في هذه القضية، وفي رد مزاعمهم، وبيان بطلانهم، فهو ينكرون قضية أكبر من أن تُنكر، قضية ظاهرة واضحة، في أن ما جاء به الرسول قرآن وليس شعرا، وأنه نبي وليس شاعرا، فالقرآن بيّن ومبين عن نفسه لمن تأمله وأقبل عليه وتدبره فأين هو وأين الشعر؟ فلا مناسبة بينهما بوجه من الوجوه(٢)، ولا يلتقيان أبدا، وسيدرك من أقبل على القرآن وتأمله أنه ﴿ تنزيل من الله أنزله إلى محمد، وأنه ليس بشعر﴾(٣)، وهكذا عاد آخر الآية على أولها في بيان حقيقة الرسول – عليه الصلاة والسلام – في بيان حقيقة،

(١) انظر : التحرير والتنوير: ٦٥/٢٣

(٢) انظر : محاسن التأويل: ١٩٤/٨

(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٥٤٩/٢٠

وفي نفي الشعر عنه، ومن هنا تتجلى بلاغة الحجاج في القرآن الكريم في تحقيق أغراضه، وتتجلى خصائصه في رد مزاعم المشركين وتفنيدها.

وبعد أن بيّن حقيقة القرآن ذكر غايته في قوله: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾

وفي ختام الآية ببيان الغاية من نزول القرآن علاقة وثيقة بالحجاج الوارد في هذه الآية، كما أن فيه ردا على افتراءاتهم، ففي هذه الغاية الجليلة للقرآن وللرسول – عليه الصلاة والسلام – دليل قاطع أن القرآن لم يكن شعرا، وأن الرسول ﷺ لم يكن شاعرا، أنى له أن يكون شاعرا وقد جاء ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ فقد تضمنت هذه الغاية دحض كل شبهة، ورد كل فرية افتراها المشركون، ورموا بها القرآن والرسول ظلما وعدوانا.

فكيف يكون شاعرا – كما تزعمون – وقد جاء لينذر من كان حيا، والمعنى: ﴿ أنّ محمداً إلا ذكر لكم لينذر منكم أيها الناس من كان حي القلب، يعقل ما يقال له، ويفهم ما يبين له غير ميت بليد الفؤاد، ويحق القول على الكافرين: ويحق العذاب على أهل الكفر بالله المولين عن اتباعه، المعرضين عما آتاهم به من عند الله ﴾ (١)، ولمحمد بن الطاهر بن عاشور كلام نفيس في بيان علاقة هذا الغاية بنفي الشعر عن رسول الله،ﷺ مبينا أثرها في إظهار تحقيق الحجاج، ورد افتراءات المشركين في كون الرسول شاعرا ﷺ، مبينا أن هذا

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٥٤٩/٢٠

الإثبات وثيق الصلة بالنفي الذي جاء في صدر الآية في قوله ﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ﴾ والمعنى المراد تقريره: أن ما جاء به ليس شعرا ولا سحرا، بل هو ذكر وقرآن مبين، الغرض منه: إنذاركم وتخويفكم بقوارعه وزواجره.(١)

وفي قوله ﴿ لِّيُنذِرَ﴾ قراءتان، فقد قرئت بالتاء، والياء، فعلى قراءة ولتنذر يكون المراد به الرسول – عليه الصلاة والسلام –، وعلى قراءة ولينذر يكون المراد به: القرآن الكريم(٢)، وفي هاتين القراءتين بيان للارتباط الوثيق بين الرسول ﷺ وبين القرآن الكريم، دلالة على وحدة مصدرهما، هذا نبي مرسل، وذاك قرآن منزَّل، وفي هذا رد على افتراءات المشركين ومزاعمهم، فيبين منه أن القرآن لم يكن شعرا، ولم يكن الرسول شاعرا، وفي هذا حجاج عليهم، وبطلان لمزاعمهم التي قالوها في القرآن وفي الرسول.

فعلى قراءة "ولتنذر" فيكون المعنى أن الرسول ﷺ منذر من ربه، يخوفهم عذابه وعقابه، ومحال أن يكون المنذر شاعرا، فهذه هي مهمته، وتلك هي أبرز خصائصه التي أرسلها ربها بها، وهي الإنذار، ومن خلال هذه الوظيفة له –عليه الصلاة والسلام– تنكشف مزاعم المشركين، ويتبين بطلانها حين زعموا أن الرسول شاعر، ومن هنا جاء نفي الشعر عنه بهذا الأسلوب، وبهذه الطريقة؛ ليكون أبلغ في الحجة، وأقوى في الرد والمحاجة، ومنه يتبين بلاغة الحجاج في نفي الشعر عن الرسول ﷺ.

(١) انظر: التحرير والتنوير: ٢٣/٦٦ .

(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٦/٣٠٥

وإن لم يكن الرسول شاعرا، فلن يكون القرآن شعرا كذلك، وهذا ما أكدته قراءة ولينذر، فأين القرآن من السحر؟ والغرض منه أن تزكو به النفوس، وتظهر به القلوب، وتخشع بسببه وتكون على وجل من أمرها وحذر، ففيه القوارع والزواجر والأوامر والنواهي، ومن هنا يتبين بطلان دعواهم، وزيف افتراءاتهم، وتظهر بلاغة القرآن، وتظهر حقيقته، وحقيقة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وفي الاقتصار في هذا المقام على غاية الإنذار في قوله (ولينذر)، دلالة مهمة في هذا المقام، ولها أثرها في تحقيق غرض الحجاج، ففيها إشارة من طرف خفي أن هؤلاء القوم بسبب تعنتهم، وبسبب مواقفهم ضد الرسول وضد القرآن، وبسبب ما زعموا أن القرآن شعر، وأن الرسول شاعر بسبب تلك المواقف كلها استحقوا الإنذار والتخويف، فهم بحاجة إلى من ينذرهم ويزجرهم، ولا ينذر إلا من تجاوز الحد وطغى، وكذلك كان المشركون مع الرسول ﷺ في مزاعمهم وافتراءاتهم.

ولن يفيد من هذا الإنذار إلا من كان ﴿ حيا أي حي القلب واعيه فهو الذي يزكو على هذا القرآن، وهو الذي يزداد من العلم منه، والعمل به، ويكون القران لقلبه بمنزلة المطر للأرض الطيبة الزاكية ﴾[1]، وللمراغي كلام نفيس في بيان انتفاع صاحب القلب الحي بالقرآن دون غيره، يقول: ﴿ لينذر من كان حيا: أي لينتفع بنذارته من كان حي القلب، مستنير البصيرة، يعرف مواقع الهدى والرشاد، ما يصده عن اتباع الحق ولا من نوازع الاستكبار ما يصده، وما يكون حائلا بينه وبين الهدى، فهو يتواثب على الإقرار بالحق اذا لاح له بريق

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٦٩٨/١

من نوره فتمتلئ جوانبه إشراقا وضياء، ويخر له مذعنا مستسلما، وكأن طائفا من السماء نزل عليه فأثلج صدره، والان قلبه فاطمأن له، وركن اليه وذلك من رزقه الله التوفيق والهداية وكتب له الفوز والسعادة﴾.[1]

فإن كان المنتفع بالقرآن حيا، فإن المعرض عنه، والكافر به ميتا، وفي ذلك تعريض بالمشركين بأنهم كالأموات لعدم انتفاعهم بمواعظ القرآن وزاجره، فقد عطلوا عقولهم، وأعرضوا بقلوبهم، فلن ينتفعوا من القرآن، ولن يقبلوا عليه، ولن يؤمنوا به، فذلك موقفهم، وتلك هي حقيقتهم أموات، كما ذكر الله ذلك عنهم، فقد ﴿ جعلهم في مقابلة من كان حيا؛ إشعارا بأنهم؛ لكفرهم وسقوط حجتهم، وعدم تأملهم أموات في الحقيقة﴾ [2]، وفي قوله (وسقوط حجتهم) إشارة إلى غرض الحجاج في هذه الآية، وأنها كانت في الغاية والبلاغة، فأسقطت حجتهم من خلال هذا البيان، ودحضت شبهتهم، ورد افتراءاتهم في الرسول وفي القرآن.

فلا غرو والحالة هذه أن يكون هذا موقفهم من الرســـول ومن القرآن، ولا غرو بعد هذا أن يزعموا أن القرآن شعر، وأن الرسول شاعر، ومن هنا جاء الرد عليهم بهذه الأســـاليب البلاغية، وبهذه الحجج الدامغة، فتحقق غرض الحجاج على أكمل وجه، فتحقق الغرض، وتم المراد، ولذا جاء ختام الآية ببيان عاقبة افتراءاتهم في الرسول وفي نسبة الشعر إليه بقوله: ﴿ وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ والمعنى: ﴿ وتجب كلمة العذاب على الكافرين الذين هم

(١) تفسير المراغي: ٣١/٢٣

(٢) البيضاوي: ٢٧٣/٤

كأنهم اموات لخلوهم من النفوس الحساسة اليقظة التي من دأبها اتباع الحق ومخالفة الهوى)).[1]

الموضع الثاني: قوله – تعالى – ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦ وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝٧ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُواْ خَٰلِدِينَ ۝٨ ثُمَّ صَدَقْنَٰهُمُ ٱلْوَعْدَ فَأَنجَيْنَٰهُمْ وَمَن نَّشَآءُ وَأَهْلَكْنَا ٱلْمُسْرِفِينَ ۝٩ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝١٠ ﴾[الأنبياء: ٥– ١٠]

وردت هذه الآيات في سورة الأنبياء، وهي سورة مكية بلا خلاف – كما يذكر ذلك أبو حيان الأندلسي–[2]، وفي هذا دلالة على أن الرسول ﷺ والقرآن الكريم من أكبر القضايا التي دار حولها الخلاف والنقاش في العهد المكي، ومن أكثر القضايا التي ظهر فيها إنكارهم وجحودهم لها، فجاء بيان موقفهم من القرآن، ومن الرسول ﷺ بأسلوب بليغ ينم عن شدة حقدهم، وقوة كفرهم، ثم جاء الرد عليهم بأسلوب بليغ أيضا، ليقتلع هذا الإنكار من جذوره، ويجتثه من أصوله، وكان الحجاج بارزا في هذه الآيات في الرد عليهم .

جاءت هذه الآيات لتبين شدة تعنت المشركين، وشدة كفرهم بالقرآن، وبمن جاء به، وقد تعددت أحكامهم على القرآن، وعلى الرسول ﷺ، يدل على ذلك حرف الإضراب (بل)، وفي تعدد هذه الأحكام وتنوعها دلالة على عظيم

(١) زاد المسير في علم التفسير: ٣٢/٣١

(٢) انظر: البحر المحيط: ٤٠٩/٧ .

حقدهم، وضعف موقفهم، وشدة اضطرابهم، وهو اضطراب ((ناشئ عن ترددهم مما ينتحلونه من الاعتلال عن القرآن؛ وذلك شأن المبطل الباهت أن يتردد في حجته، كما قيل: الباطل لجلج أي ملتبس يتردد فيه، و(بل)؛ للانتقال في حكاية أقوالهم، والتقدير: بل قالوا: افتراه، بل قالوا: هو شاعر، وحُذف فعل القول؛ لدلالة القول الأول عليهما، وعلى هذا الوجه يجوز أن يكون المحكي كلام جماعات من المشركين انتحلت كل جماعة اعتلالا)) [(١)]، وفي ذكر أقوالهم، تسجيل عليهم، وإثبات نسبتها إليهم، وشهادة عليهم بالكفر، وبالتكذيب بالقرآن، وبالرسول ﷺ، وفي هذا دلالة أنهم ((ما صدقوا بحكمة هذا القران، ولا أنه من عند الله، ولا اقروا بأنه وحي أوحى الله إلى محمد ﷺ)) . [(٢)]

وقد جاءت افتراءاتهم هذه إضرابا عن قولهم عن القرآن إنه سحر في آيات أخرى، فقد أضربوا عن نسبة السحر إليه، بنسبة هذه الافتراءات التي تدل على تناقضهم، واضطراب أمرهم، ثم ذكر – سبحانه – فرية كل طائفة منهم، وقد وقع الإضراب بعد كل تهمة؛ لبيان تناقضهم، وشدة افتراءاتهم[(٣)]، فذكروا أن القرآن (أَضْغَثُ أَحْلَامٍ) ويقصدون من هذه الفرية تجريد القرآن من حقيقته وحقائقه التي وردت فيه، فما هو إلا أضغاث أحلام، وهي الأخلاط والأهاويل والهلوسة التي يراها النائم في منامه، التي لا يحس بها، ولا حقيقة لها.[(٤)]

(١) التحرير والتنوير: ١٦/١٧ .
(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٤١١/١٨ .
(٣) انظر: البحر المحيط: ٤٠٩/٧ .
(٤) انظر: أضواء البيان: ١٣٥/٤

ثم أضربوا عن هذه الفرية إلى فرية أخرى هي أشد وأشنع (بَلِ ٱفۡتَرَىٰهُ) ومرادهم من هذه الفرية تجريد القرآن من أصله ومصدره، فليس هو من عند الله، وليس هو كتابا منزلا كما يزعم الرسول ﷺ بل اختلقه، وقاله من تلقاء نفسه، فهو فرية واختلاق وافتراء.(١)

ثم أضربوا عن هذه الفرية إلى فرية أخرى هي أشد وأقبح (بَلۡ هُوَ شَاعِرٞ) ولهم من هذه الفرية مآربهم التي تفصح موقفهم من الرسول ومن القرآن، وتنفي إعجازه، ووجه تميزه وتفرده(٢)، حتى بلغ ذروة الفصاحة، وغاية البلاغة، فقد جعلوا الرسول شاعرا، والقرآن شعرا، فهو ليس كتاب منزلا من عند الله – كما تزعم يامحمد – فهو من نسج خيالك، ومن إبداعات قريحتك، كيف لا وما أنت إلا شاعر، فلا حقيقة لما جئتَ به ولا مقدار.(٣)

جاء قولهم (فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ) امتدادا لفتراءاتهم السابقة في حق الرسول ﷺ، وفي حق القرآن الكريم، ووثيق الصلة به، فله علاقة في كون الرسول شاعرا، وأن القرآن شعر جاء به الرسول من تلقاء نفسه، فكان هذا الطلب خاتمة افتراءاتهم، ومكملا له، يدل على ذلك نظم الآية المحكم، وطريقة التعبير فيها، فقولهم (فليأتنا) جواب شرط محذوف؛ بدلالة السياق عليه، والتقدير: ﴿ وإن لم يكن كما قلنا، بل كان رسولا من الله – تعالى–

(١) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٤١١/١٨ .
(٢) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٢/٢٢
(٣) انظر: إرشاد العقل السليم:٥٥/٦

فليأتنا بآية كما أُرسل الأولون، أي مثل الآية التي أُرسل بها الأولون، كاليد والعصا ونظائرهما حتى نؤمن بها ﴾ . [١]

والمراد: أنهم طلبوا آية حسية تقع عليها حواسهم، ويشاهدونها بأبصارهم، كآيات الرسل السابقين – عليهم الصلاة والسلام – من مثل ناقة صالح، وعصا موسى، وإحياء عيسى للأموات، وإبرائه للأكمة والأبرص، وغيرها من المعجزات المشاهدة التي لا يقدر عليها إلا الله، ولا يأتي بها إلا الأنبياء والرسل.[٢]

ولم يكن طلبهم هذا إلا خبثا ودهاء، وتعنتا واستكبارا عن قبول القرآن، ودلالة على عدم اعتدادهم به، في كونه منزلا من عند الله، فالقرآن شعر، والرسول شاعر، ولذا فهم يطلبون معجزة جلية لا يتطرق إليها الشك، ولا الاحتمالات[٣]، فهم يطلبون بآية مشاهدة تدل على صدقه، وذلك تعريض منهم بالقرآن الكريم، وبالرسول الأمين، ومرادهم بذلك أن ﴿ يدع محاجته في هذا الكلام الذي يلقيه علينا، وليأتنا بمعجزة غير كلامية؛ فإن مجال الكلام متسع لكل قائل، فإن كان رسولا من عند الله كما يدعي فلمَ لم يأت بمعجزة نراها، كناقة صالح، وعصا موسى، ويد عيسى، عندئذ يمكن يكون له وجه يلقانا به على طريق دعوته، ويكون لنا نظر فيما يدعيه ﴾ . [٤]

ولم يكونوا صادقين بطلبهم، فقد كان باعثهم في ذلك التعنت والعناد، وباطنها الكفر بالقرآن، وتكذيب الرسول، ولذا فهم يطالبون بمعجزة تدل على صدق

(١) إرشاد العقل السليم: ٥٥/٦ .
(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٤١٢/١٨ .
(٣) انظر: مفاتيح الغيب: ١٢٢/٢٢
(٤) التفسير القرآني للقرآن: ٨٤٩/٩

نبوته، وصدق ما جاء على أن تكون حسية غير هذا القرآن من نوع آيات الرسل السابقين[١]

وقد أظهر قوله (فليأتنا) عتو القوم وغرورهم، وغطرستهم وكبرياءهم، فقد دخل لام الأمر على الفعل الغائب، وليس المخاطب، فلم يقولوا فلتأتنا، دلالة على تكبر ساداتهم وقادتهم فلم يتوجوا بالخطاب مباشرة إلى رسول الله ﷺ، بل طلبوا من عبيدهم وممن هم دون منهم في المكانة والسيادة أن يطلب ذلك من الرسول ﷺ على سبيل الإبلاغ، والمعنى قولوا له: فليأتنا.[٢]

إلى هنا تنتهي افتراءات المشركين في القرآن، وفيمن أُنزل عليه ﷺ، ويبدأ بعدها القرآن الكريم في الرد على تلك الافتراءات، وفي الرد التهمة عن رسول الله ﷺ في نفي الشعر عنه، وينقض افتراءاتهم عروة عروة، بأسلوب بليغ، فيه المحاجة وقرع الحجة بالحجة، ودحض كل شبهة، وذلك في قوله: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ۝٥ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾

بدأت الآية بإضراب عن كل مواقفهم السابقة في القرآن، وفي الرسول ﷺ، وذكرت شيئا من عداوتهم ومواقفهم في القرآن الكريم وفيمن جاء به، وذلك في قوله ﴿بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ وقد تضمن هذا القول منهم ثلاثة افتراءات في القرآن وفي الرسول ﷺ، واللافت للنظر أن القرآن لم

(١) انظر: فتح البيان في مقاصد القرآن: ٣٠٤/٨

(٢) انظر: التحرير والتنوير: ١٦/١٧

يتعرض للرد عليها، وبيان تهافتها وبطلانها، بل سلك مسلكا دقيقا بديعا عجيبا في الرد عليها، فكان السكوت عنها أبلغ رد، وعدم الالتفات إليها ولا إلى أصحابها أكبر دليل على بطلانها وعدم صحتها، فضلا عن أسلوب القرآن البليغ في ذكرها، ونظم كلماتها العجيب في بيانها، وبيان ما انطوت عليه قلوبهم نحو الرسول ورسالته الخالدة، وقد قام ذكر هذه المواقف وبيانها على " بل" في دلالته على الإضراب، ولهذا الحرف بهده الدلالة ارتباط وثيق في الحجاج، وفي الرد عليهم بأسلوب بليغ يحمل معاني الزجر، ومعاني الإبطال والنقض لمعتقداتهم، ولكثير من أفكارهم.

جاء الإضراب في هذه الآية، وفي هذا الموقف ليبين حقيقتهم، ويكشف عوارهم، ويرد عليهم بأسلوب غير مباشر، ويظهر تناقضهم واضطرابهم، في تعدده وتنوعه ﴿ دليل على أنهم جاهلون بحقيقة ما جاء به، لا يدرون ما هو، ولا يعرفون كنهه، أو كانوا قد علموا أنه الحق، وأنه من عند الله، ولكن أرادوا أن يدفعوه بالصد، ويرموه بكل حجر ومدر، وهذا شأن من غلبته الحجة وقهره البرهان﴾ [1]، إضراب كشف موقفهم الزائف والزائل، فليس لهم رأي ثابت، ولا يثبتون على قول، فهم فيه متحيرون متخبطون، ولا غرو أن يكون منهم هذا التناقض، وهذا التردد، فذلك هو﴿ شأن المبطل الباهت أن يتردد في حجته، كما قيل: الباطل لجلج أي ملتبس يتردد فيه ﴾ [2]، وفي هذه الإضرابات المتلاحقة، وهذا الافتراءات المتتابعة تدرج في البهتان، وترقية منهم في العداوة والطغيان، وقد جاءت بهذا الأسلوب؛ ﴿ تنزيلا من الله – تعالى – لأقوالهم

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن: ٣٠٤/٨

(٢) التحرير والتنوير: ١٦/١٧

في درج الفساد، وأن قولهم الثاني أفسد من الأول، والثالث أفسد من الثاني، وكذلك الرابع من الثالثة ﴾ .[1]

فليس من الهين أن يقولوا عن القرآن إنه أضغاث أحلام، وليتهم وقفوا عند ذلك، وما هو بهين، فذكروا أنه حديث مفترى لا حقيقة له، بل هو مختلق من عند رسول الله ولم يتكلم به الله، ولم ينزله عليه، ثم بلغ بهم الفساد والطغيان مبلغا عظيما، وجرما كبيرا حين زعموا أن الرسول ﷺ شاعر، وأن القرآن شعر، ومن هنا يعلم عظم هذه الفرية، والغاية التي يسعى المشركون إلى تحقيقها، وقد سلك القرآن العظيم مسلكا دقيقا في حجاجهم، والرد عليهم، فكان أن أعرضهم عنه، وضرب صفحا عن افتراءاتهم، ولم يرد عليها، فهي ظاهرة البطلان، فقد جعل لهم من أنفسهم خصيما، وجاء النظم القرآني بالإضراب بين كل فرية وأخرى؛ ليبين بطلانها، ويكشف عوارها، ولن يعدم المنصف من معرفة الحق والحقيقة، كيف لا؟ ﴿ وكل من له أدنى معرفة بالواقع من حالة الرسول ﷺ، ونظر في هذا الذي جاء به جزم جزما لا يقبل الشك أنه أجل الكلام وأعلاه، وأنه من عند الله، وأن أحدا من البشر لا يقدر على الإتيان بمثل بعضه، كما تحدى الله أعداءه بذلك؛ ليعارضوه مع توفر دواعيهم لمعارضته وعداوته فلم يقدروا على شيء من معارضته، وهم يعلمون ذلك، وإلا فما الذي أقامهم وأقعدهم وأقض مضاجعهم، وبلبل ألسنتهم إلا الحق...، وهو كافٍ شافٍ فمن طلب دليلا غيره أو اقترح آية من الآيات سواه فهو جاهل

(١) الكشاف: ١٠٣/٣

ظالم مشبه لهؤلاء المعاندين الذين كذبوه، وطلبوا من الآيات ما هو أضر شيء عليهم، وليس لهم فيها مصلحة ﴾ .[1]

جاء قوله – تعالى – ﴿ مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ أَهۡلَكۡنَٰهَآۖ أَفَهُمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴾ ردا على قولهم ﴿ فَلۡيَأۡتِنَا بِـَٔايَةٖ كَمَآ أُرۡسِلَ ٱلۡأَوَّلُونَ ﴾ تضمنت ردا بليغا، وحجابا قويا اقتلع طلبهم من جدوره، وفنده وبيّن بطلانه، وقد توافر فيها كثير من الأساليب وتضافرت فيهما بينها لإبراز ما تميز به القرآن الكرم من قوة وحجاج، فقد سيقت الآية مساق الرد عليهم، وتكذيبهم بما قالوا وبما طلبوا، ولأبي السعود كلام نفيس بيّن فيه بلاغة هذا الرد، والغرض منه، يقول، وقوله: ﴿ ما آمنت قبلهم من قرية: كلام مستأنف مسوق لتكذيبهم فيما تنبئ عنه خاتمة مقالهم من الوعد، وبيان أنهم في اقتراح تلك الآيات كالباحث عن حتفه بظفره، وإنْ في ترك الإجابة إليه إبقاء عليهم، كيف لا ولو أعطوا لوجب استئصالهم لجريان سنة الله – عز وجل– في الأمم السالفة على أن المقترحين إذا أُعطوا ما اقترحوه، ثم لم يؤمنوا نزل بهم عذاب الاستئصال لا محالة، وقد سبقت كلمة الحق منه –تعالى – أن هذه الأمة لا يعذبون بعذاب الاستئصال﴾.[2]

وللنفي الذي جاء في صدر الآية في قوله ﴿مَآ ءَامَنَتۡ قَبۡلَهُم مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أثر في هذا الحجاج، وإظهار لهم، فقد بكتهم، وأظهر ضعف موقفهم، ورد عليهم دعواهم، وقد أكد هذا النفي زاده قوة وظهروا الحرف الجر من في قوله: من

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان : ٥١٨/١

(٢) إرشاد العقل السليم: ٥٦/٦

قرية، ففيها زيادة ﴿ لتأكيد النفي المستفاد من حرف"ما"، ومتعلق "آمنت" محذوف دل عليه السياق أي: ما آمنت بالآيات قرية﴾ . (١)

ومن هنا تتبين بلاغة هذا الحجاج، وتبرز خصائصه في مقام الرد على المشركين، فلم يكن الاستجابة لمطلبهم عجزا ولا ضعفا، ولم يكن طلبهم مستحيلا ولا صعبا، ولكن سنة الله التي مضت في الأمم السابقة، وفيه إشارة إلى أنهم مستحقون الهلاك، قد استوجبوا العذاب بما كان منهم، وبسبب مواقفهم ضد الرسول ﷺ، وضد القرآن الكريم، ﴿ ولكن حكم الله –تعالى– بإبقائهم؛ ليومن من آمن، ويُخرج منهم المؤمنين﴾ . (٢)

وقد كان الاستفهام حاضرا في هذه المحاجة، وفي الرد عليهم، وبيان بطلان دعواهم، فكان خاتمة البيان، والحجة الدامغة، التي قضت على كل شبههم، وكشفت ضعف مواقفهم، وذلك في قوله: ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ وفي هذا الاستفهام كثير من المعاني تضافرت فيها بينها وأظهرت الحجاج في هذا المقام وأبرزته، وجعلته أقوى حجة، وأصدق دلالة، فالاستفهام فيه لإنكار الوقوع؛ أن نفي إيمانهم، جريا على السنن في الأمم الماضية، وما يكون منهم من التكذيب بها والإنكار، فيكون معنى الاستفهام: ﴿ أفهؤلاء المكذبون محمدا السائلوه الآية يؤمنون إن جاءتهم آية، ولم تؤمن قبلهم أسلافهم من الأمم الخالية التي أهلكناها برسلها مع مجيئها ﴾ . (٣)

---

(١) التحرير والتنوير: ١٧/١٧ .

(٢) البحر المحيط: ٤١٠/٧

(٣) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٤١٣/١٨

ويمتد الإنكار –أيضا – ليشمل من يظن أنهم صادقون في طلبهم، وأنهم سيؤمنون بها وينقادون [1]، كيف وقد جاءتهم آية هي أعظم وأبلغ من الآيات التي يطلبونها، القرآن الكريم، لكنهم أعرضوا عنه وقالوا عنه شعر، وعن الرسولﷺ شاعر؟! ومن هنا تتجلى بلاغة هذا الاستفهام، وأثره في تحقيق غرض الحجاج، ودحض حججهم، وكان له هذا الأثر البالغ أن كان الغرض منه التقريع والتوبيخ، ولا يخفى أهميته، وأهمية حضوره في مقام الحجاج، ومن هنا تتجلى بلاغة القرآن الكريم في توظيفه للأساليب البلاغية المتعددة والمتنوعة في تحقيق غرض الحجاج في مقام إنكاره ورده على دعاوى وافتراءات المشركين في نسبة الشعر إلى رسول الله ﷺ

ومن بلاغة القرآن الكريم، وعظيم إعجازه – وله علاقة وثيقة بالحجاج – في هذا المقام: أن جاء قوله – تعالى – ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ تذييلا لهذه المحاجة، وتعقيبا على مواقف المشركين في افتراءاتهم أن القرآن أضغاث أحلام، أو أن الرسولﷺ افتراه واختلقه من تلقاء نفسه، أو أنه شعر، ولهذه الآية علاقة من طرف خفي بموضوع الحجاج، والرد على مواقف المشركين من القرآن، في بيان أنه ليس بشعر، وأن الرسولﷺ ليس بشاعر، وقد توافر فيها كثير من الأساليب البلاغية لتحقيق غرض الحجاج، يتجلى ذلك فيما يأتي:

أولا: في التوكيد التي جاءت في صدر الآية في قوله (لَقَدْ أَنزَلْنَآ) فالقرآن منزل من عند الله، وفي تأكيد هذه القضية وتقريرها رد على تلك الافتراءات كلها، فكيف يكون القرآن شعرا أو سحرا، وقد نزل من عند الله رب العالمين،

(١) انظر: إرشاد العقل السليم: ٥٦/٦ .

فليس هو شعرا، وليس النبي ﷺ بشاعر، ولكي يؤتي الحجاج ثماره، ويحقق الغرض منه، جاء هذه الخبر مؤكدا بكثير من المؤكدات، والتقدير: والله لقد أنزلنا[1]، مؤكدات اقتضاها المقام تحقيقا لغرض الحجاج، إشارة إلى موقف المشركين من القرآن، ومن الرسول ﷺ، فقد قالوا عنه أضغاث أحلام، وأنه مفترى، وأنه شعر فقد ناسب غرض الحجاج هنا أن يأتي بهذه المؤكدات كلها؛ ليقتلع من قلوب المشركين جذور الكفر والإنكار، وليبين لهم حقيقة هذا القرآن، وحقيقة من جاء به، ومن أُنزل عليه؛ ببيان مزاياه، وذكر خصائصه التي تضمنتها، فكيف والحالة هذه يكون شعرا، وكيف يكون الرسول شاعرا؟!

ثانيا: في تنكير لفظة (كِتَبًا) والغرض من التنكير هنا: التعظيم والتفخيم، فلهذا الكتاب المنزل من رب العالمين شرفه ومكانته، وفي ذلك تفخيم لشأنه، وبيان لعلو قدره، وفي بيان عظمته، وذكر ما تميز به رد مباشر وغير مباشر على كل افتراءات المشركين، ودحض لكل مواقفهم المتعددة من القرآن ومن الرسول ﷺ، يدل على عظمته، وجليل قدره أن فيه ذكرا لهم لو كانوا يعلمون، والمراد بذلك: الشرف والمكانة العالية، يدل على ذلك: قول ابن قتيبة: ﴿﴿ الذكر يُوضع موضع الشرف؛ لأن الشريف يُذكر، كما قال . تعالى . ﴿ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف : ٤٤] ﴾﴾ . [2]

ثالثا: الاستفهام الذي خُتمت به الآية في قوله (أَفَلَا تَعۡقِلُونَ)، وللاستفهام حضوره في مثل هذه المقامات، وأثره البالغ في تحقيق غرض الحجاج، ويكاد يكون من أقوى أساليب المواجهة والمجابهة بما يتضمنه من معانٍ ودلالات،

(١) انظر : التحرير والتنوير : ١٧ / ٢٢ .

(٢) تأويل مشكل القرآن : ١٤٧ .

فقد جاء الاستفهام هنا ليحقق معنى الإنكار والتوبيخ لهؤلاء المشركين، ينكر عليهم افتراءاتهم، ويوبخهم على مواقفهم وأقوالهم في القرآن وفي الرسولﷺ، فليس القرآن شعرا، وليس الرسول شاعر، وفي قوله (تعقلون) إشارة مهمة في موضوع الحجاج، فهو يخاطب عقولهم، ويحيلهم إلى العقل والتفكير، فهو أداة الحجاج، وميدانه الفسيح، ولذا ففي اختيار هذه اللفظة تعريض بهم، وبعقولهم، فلا عقول لهم تدعوهم إلى النظر، والقول السديد، والعاقل يأنف أن يُرمى بعقله، وأن يتهم بالغباء والجنون، فأين غابت عقولكم عن وصف الرسول ﷺ بالشاعر، ورمي القرآن بالسحر والشعر؟! وقد زاد هذا الحجاج أثراً وتأثيرا أن كان متعلق "تعقلون" محذوفا، وله أثره وغايته في تحقيق غرض الحجاج، وذلك أن المعنى: ﴿ أفلا تعقلون ما ينفعكم وما يضركم؟ كيف لا تعملون على ما فيه ذكركم وشرفكم في الدنيا والآخرة، فلو كان لكم عقل لسلكتم هذا السبيل، فلما لم تسلكوه، وسلكتم غيره من الطرق التي فيها ضعتكم وخستكم في الدنيا والآخرة وشقاوتكم فيهما، عُلم أنه ليس لكم معقول صحيح، ولا رأي رجيح ﴾[1]، ومن هنا يتبين أثر هذا الاستفهام وبلاغته في تحقيق غرض الحجاج في مقام الرد على من تهم المشركين للرسول ﷺ فإذا لم يكن القرآن شعرا، فلن يكون الرسول شاعرا لو كنتم تعقلون، وأين العقل منكم؟

الموضع الثالث:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ

(١) تيسير الكريم الرحمن : ٣ / ٢٦٩ .

ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣٧ إِنَّكُمۡ لَذَآئِقُواْ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَلِيمِ ۝٣٨ وَمَا تُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝٣٩ ﴾ [الصافات: ٣٤- ٣٩]

وردت هذه الآيات في سورة الصافات، وهي سورة مكية أيضا[١]، وفي هذا دلالة على أن القرآن الكريم، والرسول ﷺ من الموضوعات التي طال فيها نقاش المشركين وجدالهم، فكانوا يرمونهما بكل فرية، وبكل نقيصة؛ ظلما وبهتانا، وهي ﴿ صورة لما كان يقفه الكفار من دعوة النبي، ومن شخصه أيضا، وقد تكررت في مناسبات عديدة مماثلة حيث كانت المشاهد والمواقف تتكرر وتتجدد ويلحظ في الحوار الذي يجري بين الكفار والأقوال التي تقال لهم أنها مقتبسة من مألوفات الدنيا وأساليب خطابها ومشاهدها وهذا طبيعي؛ لأنه هو الأشد تأثيرا في الوعظ والإنذار والترغيب والترهيب﴾ .[٢]

فجاء الرد عليهم دامغا، وظهرت بلاغة القرآن في حجاجه، وقوة أسلوبه، فقضى على كل شبهة، ورد أقوالهم إلى نحورهم، وفي هذه الآيات مشهد من مشاهد يوم القيامة، مشهد العذاب والجزاء لهؤلاء الكافرين جزاء مواقفهم من الرسول، وجزاء فريتهم عليه بأنه شاعر ومجنون.

فكان قوله ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٤ ﴾ إشارة وتأكيدا للعذاب الذي يتعذبون فيه، فذلك حكاية لما سيقع لهم في الآخرة من العذاب والنكال، فيقال لهم وفي العذاب يصطرخون ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفۡعَلُ بِٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٣٤ ﴾ فهم مجرمون ويستحقون هذا العذاب العظيم، فالجزاء من جنس العمل، وما ربك بظلام للعبيد، ثم ذكر سوء صنيعهم، وقبح أعمالهم فذكر عنهم ﴿ إِنَّهُمۡ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ

(١) انظر: البحر المحيط: ٩٩/٩

(٢) التفسير الحديث: ٢١٣/٤

لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ فقد صدوا واستكبروا عن الإيمان بالله، فكفروا به، وأشركوا معه غيره تكبرا وعنادا، والمعنى: ﴿ أن هؤلاء المجرمين الذين نعذبهم هذا العذاب الأليم إنما نفعل بهم هذا؛ لأنهم كانوا إذا دعوا إلى الإيمان بالله، وإلى أن يعبدوه وحده أبوا أن يستجيبوا لهذا الداعي الذين يدعونهم، واستكبروا أن يتلقوا كلمة التوحيد منه، ويقولون: أنتبع هذا الشاعر المجنون ونترك آلهتنا ﴾.(١)

ثم ذكر – سبحانه – سوء صنيعهم، وسوء تعليلهم لكفرهم، ولعدم اتباعهم للرسول الكريم ﷺ في قوله: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾، وثمة ارتباط وثيق بين هذه الآية والتي قبلها، فقد جاءتا لبيان ما كان عليه المشركون من الإعراض والافتراء، فقد أعرضوا في الأولى عن الإيمان بالله رب العالمين، وفي الثانية افتراء على رسول الله ﷺ، في زعمهم أنه شاعر مجنون، وقد أشار إلى هذا الارتباط البقاعي، وبيّن ما بينهما من ترابط يقول: ﴿ ولما أخبر أنهم استكبروا على توحيد الآلة أتبعه الأخبار بأنهم تكلموا في رسوله بما لا يرضاه، فقال ويقولون أي كل حين ما دلوا به على بعدهم عن الإيمان كل البعد بسوقهم لقولهم ذلك في استفهام إنكاري مؤكد أئنا لتاركوا آلهتنا أي عبادتها، وكل تأكيد أصل الكلام للإشارة إلى أن تكذيبهم صادر منهم مع علمهم بأن كل عالم بحالهم يراهم جديرين بترك ما هم عليه لما جاء به الرسول﴾.(٢)

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٩٧٧/١٢

(٢) نظم الدرر في تناسب الآي والسور: ٢٢٦/١٩ .

يذكر – سبحانه– في هذه الآية فرية المشركين في نسبة الشعر إلى رسول الله ﷺ، ولذا فهو لا يعدو إلا أن يكون شاعرا، ولذا اتخذوا هذه الفرية ذريعة لعدم الإيمان به والاستجابة له فقالوا: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ٣٦ ﴾

والمعنى: أتطلب منا أن نترك آلهتنا، وآلهة آبائنا التي ورثناها كابرا عن كابر؟!، من أجل قول شاعر مجنون، وقد بلغ بهم الإنكار مبلغه، والاستكبار غايته حين ذكروا ذلك من خلال أسلوب الاستفهام في قولهم ﴿ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا ﴾ ، فقد نفوا اتباعه، وترك آلهتهم من خلال هذا الأسلوب، وقد ضمنوه معاني الإنكار والتعجب، فهم ينكرون على من يدعوهم إلى ذلك، ويتعجبون منه كل التعجب؛ دلالة منهم على أن ما يدعوهم إليه رسول الله ﷺ ((أمر منكر لا يطمع في قبولهم إياه تحذيرا لمن يسمع مقالتهم من أن أين يجول في خاطره تأمل في قول الرسول (لا اله الا الله) وقووا هذا التحذير بجعل حرف الإنكار مسلطا على الجملة المؤكدة بحرف التوكيد؛ للدلالة على أنهم إذا أتوا ما أنكروه كانوا قد تحقق تركهم آلهتهم تنزيلا لبعض المخاطبين منزلة من يشك في أن الإيمان بتوحيد الإله يفضي إلى ترك آلهتهم؛ ليسدوا على المخاطبين منافذ التردد أن يتطرق منها إلى خواطرهم)) .[1]

فتأبى حميتهم، وتأنف سجيتهم أن يتبعوا شاعرا مجنونا، يعنون بذلك رسول الله ﷺ ، وقد أرادو من إطلاق هذا الأوصاف صد الناس عن اتباعه، والتنفير منه، ظلما منهم وبهتانا، ((ولم يكفهم قبحهم الله الإعراض عنه، ولا مجرد

(١) التحرير والتنوير: ١٠٧/٢٣

تكذيبه حتى حكموا عليه بأظلم الأحكام وجعلوه شاعرا مجنونا، وهم يعلمون أنه لا يعرف الشعر والشعراء، ولا وصفه وصفهم، وأنه أعقل خلق الله، وأعظمهم رأيا ﴾ .[١]

ومرادهم من ذلك رد دعوته وعدم اتباعه؛ فما هو إلا شاعر، والذي جاء به شعر يغلب عليه الغلو والكذب، ولم يقفوا عند هذا الافتراء حتى وصفوه بفرية أخرى، فرموه بالجنون زورا وبهتانا، وقد أعظموا الفرية، وتجاوزوا الحد في الصد كيف ﴿ وقد علموا أنه أرجح الناس عقلا، وأحسنهم رأيا، وأشدهم قولا، وأعلاهم كعبا في المآثر والفضائل كلها، وأطولهم باعا في العلوم والمعارف بأسرها ﴾ .[٢]

وفي وصفهم للنبي ﷺ بأنه شاعر مجنون تناقض منهم واضطراب يدل على الحقد والبعض الذي غطى على أبصارهم، وأعمى بصيرتهم، فأين الشعر من الجنون؟! فلدى الشاعر ﴿من الفهم والحذق وجودة الإدراك ما ينظم به المعاني الغريبة، ويصوغها في قالب الألفاظ البديعة، ومن كان مجنونا لا يصل إلى شيء من ذلك﴾ [٣]، فكيف يجتمع الشعر والجنون في رجل واحد، إذ يقوم الشعر على النظام: بوزنه وقافيته، وإلى عقل رصين، وفكر دقيق، يتأمله ويصوغ تراكيبه، وينتقي ألفاظه؛ ليحقق أغراضه، ويبز أقرانه، بخلاف الجنون فهو متفلت من كل شيء، لا يجمعه نظام، ولا يقوم على أسس أو بيان، فأين هذا من ذاك، ولكنه الحقد والكفر الذي يعمي ويصم.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٧٠٢/١

(٢) روح البيان: ٤٥٧/٧ .

(٣) البحر المحيط: ٩٩/٩ .

هذه هي افتراءاتهم في الرسول ﷺ فجاء رد رب العالمين في ردها، وبيان تهافتها، وبيان عوارها في قوله: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ وقد ذكر كثير من المفسرين أن في هذا الآية ردا وتكذيبا ونقضا لافتراءاتهم، ودحضا لمزاعمهم؛ فقد ذكر ابن كثير في تفسيره أن قوله ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ تكذيب لقولهم، ورد عليهم فلم يكن – عليه الصلاة والسلام– شاعرا ولا مجنونا ((بل جاء بالحق يعني رسول الله ﷺ جاء بالحق في جميع شرعة الله له من الأخبار والطلب، وصدّق المرسلين أي صدقهم فيما أخبروه عنه من الصفات الحميدة، والمناهج السديدة، وأخبر عن الله في شرعه وقدره وأمره كما أخبروا)) .(١)

وكذلك أبو السعود فقد ذكر أن في الآية ردا عليهم مزاعمهم، وتكذيبا لهم ((ببيان أن ما جاء به من التوحيد هو الحق الذي قام به البرهان، وأجمع عليه كافة الرسل – عليهم السلام– فأين الشعر والجنون من ساحته الرفيعة ؟ !)).(٢)

وذكر السعدي ذلك وقرره، وزاد عليه مبينا أن قوله – تعالى ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ نقض ورد على المشركين، فمجيئه بالحق وتصديق للمرسلين قبله شهادة حق، ودليل صدق أنه لم يكن شاعرا ولا مجنونا،

(١) تفسير القرآن العظيم: ١٢/٧

(٢) إرشاد العقل السليم: ١٩٨/٧

كيف وقد جاء بالحق وصدق المرسلين؟! بأن جاء بما جاؤوا به، ودعا إلى ما دعوا إليه، فمجيئه صدق، ورسالته الحق.(١)

ومن خلال ما تقدم يتبين أن في الآية تكذيبا لهم فيما قالوا، وردا لمزاعمهم، وبيانا لحقيقة رسول الله، ﷺ فقد ﴿جاء بالحق الذي لا شك فيه، وهو التوحيد الذي يثبته العقل، ويؤيده البرهان، وبمثله جاء الأنبياء السابقون، فهو لم يكن بدعا بين الرسل، بل سار على شاكلتهم، واتبع نهجهم فكيف يكون من هذه حاله شاعرا أو مجنونا ؟! ﴾.(٢)

وفي حرف الإضراب (بل) في مفتتح الآية تحقيق لهذه المعاني، وتأكيد عليها، فللإضراب حضوره وتأثيره في ساحة الحجاج، وله دلالته المؤثرة على النقض والرد والتكذيب، فقد تضمن نقض ما جاء قبله، وإقرارا وتثبيتا لما جاء بعده، وهو إضراب إبطال(٣)، فقد أضرب عن قولهم السابق في حق رسول الله ﷺ واتهامهم له بأنه شاعر مجنون، وأبطله في الوقت نفسه ببيان حقيقته فما هو شاعر، وليس ما جاء به شعرا، بل هو الحق والبيان والهدى الذي لا شك فيه، فقد جاءهم بالحق من ربهم وصدق المرسلين، وقد جاء الإضراب هنا بهذه الدلالة وفاء لمقام الحجاج، وتحقيقا لغاياته، فالإضراب والإبطال من أهم أسس الحجاج، وأبرز أركانه.

وفي ذكر صفة الحق والتصديق له – عليه الصلاة والسلام – أثر بالغ في تحقيق غرض الحجاج في هذا المقام، وفي رد مزاعمهم في رسول الله في

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٧٠٢/١

(٢) تفسير المراغي: ٥٤/٢٣

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ١٠٨/٢٣

نسبته إلى الشعر، فكيف بمن جاء بالحق، وصدّق به أن يكون ساحرا أو مجنونا، ذكر هذه الحقيقة، وأبانها أتم بيان محمد بن الطاهر بن عاشور، وبسط القول فيها مبينا أثرها وتأثيرها في تحقيق غرض الحجاج، يقول: ﴿ وفي وصف ما جاء به أنه الحق ما يكفي لنفي أن يكون شاعرا مجنونا؛ فإن المشركين ما أرادوا بوصفه بشاعر أو مجنون إلا التنفير من اتباعه، فمثلوه بالشاعر من قبيلة يهجو أعداء قبيلته، أو بالمجنون يقول مالا يقوله عقلاء قومه، فكان قوله ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ ﴾ مثبتا لكون الرسول ﷺ على غير ما وصفوا إثباتا بالبينة، وأتبع ذلك بتذكيرهم بأنه ما جاء إلا بمثل ما جاءت به الرسل من قبله، فكان الإنصاف أن يلحقوه بالفريق الذي شابههم دون فريق الشعراء أو المجانين، وتصديق المرسلين يجمع ما جاء به الرسول إجمالا وتفصيلا ... فهو تصديق له، ومصادقة عليه ... فالمعنى أن ما دعاكم إليه من التوحيد قد دعت إليه الرسل من قبله، وهذا احتجاج بالنقل عقب الاحتجاج بأدلة النظر ﴾.[1]

وقد جاء قوله ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ مؤكدا لما سبقه، ومتمما لغرض الحجاج، فهو وثيق الصلة بما قبله في الرد على المشركين في كون الرسول شاعرا، وبيان عاقبة هذا الافتراء، وجزاء هذه المواقف ضد الرسول ﷺ وما جاء به، وكأن هذه الآيات التي تذكر مصيرهم وتبين عقابهم في الآخرة بأنه لا فائدة تُرجى من مناقشتهم، ولا ثمرة ستحصل من الحديث معهم ومحاجتهم، فلا ثمرة ولا فائدة من هذا كله؛ فالعذاب واقع

(١) التحرير والتنوير: ١٠٨/٢٣

بكم لا محالة، جزاء أعمالكم، وسبب افتراءكم على الرسولﷺ بأنه شاعر[1]، والمعنى أنكم لذائقو العذاب الأليم وذلك ﴿ بما فعلتم من الإشراك، وتكذيب الرسول والاستكبار، لذائقو العذاب الأليم، والالتفات إلى الخطاب لإظهار كمال الغضب عليهم، وما تجزون إلا ما كنتم تعلمون ﴾.[2]

وفي وصف العذاب بأنه أليم دلالة على شدة ما اقترفوه، وعظيم جنايتهم في حق رسول الله، فقد عظم العذاب لعظم الذنب، ومن هنا يبين أن لهذا العذاب أثرا في تحقيق غرض الحجاج، وكأنه يقول لهم إن مواقفكم من الرسول والقرآن ستؤول بكم إلى شر مآل، وسيصيبكم بسببها العذاب الأليم: الموجع الذي يقض مضاجعكم، ويوجع قلوبكم، ويحرق أجسادكم، وهذا أبلغ رد على مواقفهم، وأقوى دليل في بيان حقيقة الرسول عليه الصلاة والسلام في نفي الشعر عنه، فليس هو بشاعر، وليس القرآن شعرا كما تزعمون وتفترون.

الموضع الرابع :

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ [الطور: ٢٩-٣٤]

وردت هذه الآيات في سورة الطور، وورد في سبب نزولها أن ﴿ قريشا لما اجتمعوا في دار الندوة في أمر النبي ﷺ قال قائل منهم: احبسوه في

(١) انظر: تفسير المراغي: ٥٥/٢٣

(٢) روح البيان: ٤٥٧/٧

وثاق، ثم تربصوا به ريب المنون؛ حتى يهلك كما هلك من قبله من الشعراء: زهير والنابغة، إنما هو كأحدهم فأنزل الله – تعالى– ذلك من قولهم ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾» [1]، ويتبين من سبب نزولها: أن هذه الآيات مكية، وفي ذلك دلالة أن الرسول ﷺ وما جاء به كان من أكثر الموضوعات، وأكبر القضايا التي شغلت المشركين، ولذا تنوعت فيه أقاويلهم، وكثرت فيه افتراءاتهم ما بين شاعر وساحر، ومجنون وكاهن، وقد تولى – تعالى – الرد على هذه المزاعم، وتلك الافتراءات بأسلوب قول جزل بليغ يدحض فيه كل شبهة، ويرد كل فرية من خلال محاجتهم، ونقض أقوالهم، فظهر بذلك بلاغة حجاج القرآن، وظهر إعجازه.

وقد بدأت الآيات بأمر الله لنبيه أن يذكر الناس جميعا، وأن ينشر دعوته، وألا يلتفت لهذه الأقاويل الباطلة، والدعاوى الكاذبة، وهذا أبلغ رد على تلك المزاعم كلها، ومن هنا يتبين بلاغة هذه الأمر (فذكر) الذي استُفتحت بها هذه الآيات، وعلاقته الوثيقة بموضوع الحجاج، فهو أمر من الله له بالمضي بالدعوة، والمضي بتذكير الناس، والمراد بذلك «أن يذكِّر الناس: مسلمهم وكافرهم؛ لتقوم حجة الله على الظالمين، ويهتدي بتذكيره الموفقون، وأنه لا يبالي بقول المشركين المكذبين وأذيتهم وأقوالهم التي يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفى عنه كل نقيصة رموه بها فقال:(وَلَا مَجْنُونٍ) فاقد للعقل، بل أنت أكمل الناس عقلا، وأبعدهم عن الشياطين، وأعظمهم صدقا، وأجلهم وأكملهم» . [2]

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤٠٦/٧

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٨١٥/١

وقد أتبع –سبحانه– هذا الأمر بنفي قاطع سقط معه كل افتراءات المشركين في حقيقة الرسول ﷺ، فجاء النفي صريحا قويا مجلجلا ﴿ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴾، والباء في قوله بنعمة ربك للسببية[١]، والمعنى: بسبب ما أحاطك به ربك من النعم، وبسبب ما أولاك من العناية والرعاية، وبسبب حفظه لك، وبيان مقامك، والرد على أعدائك، وقد دل على هذا المعنى وأكده حرف الفاء في قوله: فذكر، والمعنى: ﴿ قد علم أي أنك لست بكاهن، فلا تتغير ولا تتبع أهواءهم؛ فان ذلك سيرة المزور، فذكر؛ فإنك لست بمزور، وذلك سبب التذكير ﴾[٢]، ومن هنا يظهر هذا الحجاج ويبرز من حروف القرآن وأدواته، فقد وُظفت توظيفا بليغا في إبراز معنى الحجاج وتقويته في الرد على افتراءات المشركين، وفي بيان حقيقة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وفي لفظة (رَبِّكَ) إبراز لغرض الحجاج وتحقيق له، فالرب هو السيد والمالك، الذي يتولى عباده بالعناية والرعاية، والحفظ، ومن عنايته بعبده ورسوله أن يتولى أمره، ويعين شأنه، ويظهر قدره وحقيقته، ويرد عنه كل افتراء، ويدحض حجج أعدائه، ومن هنا يظهر سر انتقاء لفظة (رَبِّكَ)، في هذا المقام.

ينفي –سبحانه– عن رسوله أن يكون كاهنا أو مجنونا، وحاشاه – عليه الصلاة والسلام – أن يكون كذلك، ومرادهم بالكاهن ﴿ الذي ينتحل معرفة ما سيحدث من الأمور، وما خفي مما هو كائن ويخبر به بكلام ذي أسجاع قصيرة ﴾ [٣]، وربما دفعهم إلى ذلك بما يأتيهم به من أخبار مستقبلية، اتهموه

(١) التفسير القرآني للقرآن: ٩٧٧/١٢

(٢) مفاتيح الغيب: ٢١٢/٢٨

(٣) التحرير والتنوير: ٦٠/٢٧

بالكهانة؛ لكفرهم بربه الذي أنزله عليه وأوحاه له، ولأنها دعوى كاذبة، ظاهرة البطلان، وقد اكتفى الذكر الحكيم برد افتراءاتهم، وبيان بطلانها بنفيها فقط دون التدليل عليها، وكأن الغرض من هذا النفي بيان حقيقة النبي ﷺ، وبيان حقيقة أولئك الكفار، فمن عرف سيرته، واطلع على أخباره عرف أنه ليس بكاهن ولا مجنون، ومن هنا ﴿ اكتُفي في إبطال كونه كاهنا أو مجنونا بمجرد النفي دون استدلال عليه؛ لأن مجرد التأمل في حال النبي ﷺ كاف في تحقق انتفاء ذينك الوصفين عنه، فلا يحتاج في إبطال اتصافه بهما إلى اكثر من الأخبار بنفيهما؛ لأن دليله المشاهدة ﴾ [1]، فهم يعلمون جميعا أنك ﴿ أشرف الناس عنصرا، وأكملهم نفسا، وأزكاهم خلائق، هم بها معترفون لك قبل النبوة بنعمة ربك ... بما هيأك من رجاحة العقل، وعلو الهمة، وكرم الفعال، وجود الكف، وطهارة الأخلاق، وشرف النسب ﴾ [2]، ومن هنا جاء النفي دالا على هذا المعاني كلها، وجاء الأمر كذلك في صدر الآية (فَذَكِّرْ) للمضي له في دعوته، وللثبات على ما هو عليه، وتذكير لما أولاه به من العناية والرعاية، آمرا له بعد الاكتراث بما يقولون، فضلا عن الاهتمام به، والاغتمام منه .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

(١) التحرير والتنوير: ٦٠/٢٧

(٢) نظم الدرر: ٢١/١٩

ذكر – سبحانه – في هذه الآيات فرية أخرى من افتراءات المشركين في رسول الله ﷺ، فذكر أنهم يزعمون أنه شاعر، وأن ما جاء به الشعر، في قولهم ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ وقد جاءت الآيات على نسق بديع، ونظام عجيب في الرد على هذه الفرية، في نسبة الشعر إلى رسول الله ﷺ، في انتفاء كونها شاعرا، بأسلوب بليغ حقق غرض الحجاج، ودمغ فريتهم، ودحض شبهتهم، يتجلى ذلك من (أم) التي جاءت في صدر الآية في قوله ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ .

جاء الرد على هذا الافتراء في نفي الشعر عن رسول الله مغايرا لما قبله من رد الافتراء بكونه كاهنا أو مجنونا، فثمة فرق بين هذه الفرية، وبين دوافعها عن التي قبلها، ومن هنا اختلفت طريقة القرآن في الرد عليها، وفي طريقة محاجتهم، ودحض شبهتهم، فقد ((نفى الله – جلا وعلا– عن نبيه –صلى الله عليه وسلم– في هاتين الآيتين الكريمتين ثلاث صفات قبيحة عن النبي رماه بها الكفار وهي الكهانة والجنون والشعر، أما دعواهم أنه كاهن أو مجنون فقد نفاها صريحا بحرف النفي الذي هو "ما" في قوله (فما أنت)، وأكد النفي بالباء في قوله "بكاهن"، وأما كونه شاعرا فقد نفاه ضمنا بـ"أم" المنقطعة في قوله (أم يقولون شاعر)؛ لأنها تدل على الإضراب والإنكار المتضمن معنى النفي))[1]،

وقد تضمنت (أم) في هذا المقام كثيرا من المعاني المراد توظيفها وإبرازها في هذا المقام؛ تحقيقا لغرض الحجاج، ففيها معنى الإنكار، إنكار موقفهم من

(١) أضواء البيان: ٤٥٩/٧

الرسول ﷺ، وإنكار عليهم هذه الفرية، وهذا التهمة التي هو منها براء، يدل على هذا الإنكار قول ابن كثير في تفسير هذه الآية ﴿ثم قال تعالى منكرا عليهم في قولهم في الرسول ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴾﴾ [1]، وفي هذا الإنكار إضراب عن مقولتهم، بما تضمنته من كذب وافتراء في حق رسول الله ﷺ، ومع هذا الإضراب انتقال من كذبهم وافترائهم في الآية التي قبلها إلى هذه الفرية الأخرى، وفي هذا الانتقال تخبط من المشركين تجاه رسول الله ﷺ، واضطراب في مواقفهم ضده، فهم يضربون في كل اتجاه، ويسيرون في كل طريق، فمرة يقولون كاهن، ومرة مجنون، والآن يقرون أنه شاعر، تهم لا تثبت عند التمحيص، تفتقر إلى المصداقية، ولذا ﴿فهم يلقون بهذه الأباطيل من غير أن يقوم عندهم دليل عليها، وإنما هي رميات طائشة عمياء، يلقون بها بلا حساب أو تقدير، شأن من يحارب عدوا متوهما فيرمي بكل ما يقع بيده إلى كل اتجاه؛ فرارا من هذا الخطر المتوهم سواء أصابت هذه الرميات عدوا أو صديقا﴾ [2]، و (أم) هنا بمعنى بل، ومجيئها دون "بل" أبلغ وأقوى في الردع والزجر، وآكد في تحقيق غرض الحجاج؛ فللاستفهام حضوره وأثره البالغ في تحقيق الحجاج، وفي إقامة الحجة على الخصم، وقد أشار إلى بلاغة هذا العدول محمد بن الطاهر بن عاشور في قوله: ﴿وعُدل عن الإتيان بحرف (بل) مع أنه أشهر في الإضراب الانتقالي؛ لقصد تضمين(أم) للاستفهام، والمعنى بل أيقولون، والاستفهام المقرر إنكاري ﴾ [3]، جاءت

(١) تفسير القرآن العظيم: ٤٠٥/٧

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ٥٧٢/١٤ .

(٣) التحرير والتنوير: ٦٠/٢٧

بأسلوب الاستفهام مع أن نسبتها لهم مؤكدة لا شك فيها، يقين لا مراء فيها، والمعنى: ﴿ يقولون إنه شاعر قولا، بل يعتقدونه عقلا، ويدخل في عقولهم ذلك، أي ليس قولا منهم من غير عقل بل يعتقدونه كونه كاهنا ومجنونا﴾ (١)، فهم يقولون ذلك ويكررونه صباحا ومساء، ولكن جاءت بأسلوب الاستفهام؛ إشارة إلى أن هذه التهم، وتلك الافتراءات لا تصدر من عاقل، لو راجع نفسه لتبين له سوء مقاله، ومغبة أفعاله(٢)، ومن هنا يتبين أثر أسلوب الاستفهام وبلاغته في تحقيق الحجاج وإبرازه، ففيه معنى التقريع والتوبيخ والإنكار من موقفهم من الرسول ﷺ، ورد على فريتهم من أن يكون الرسول شاعرا.

إذن فهم يزعمون أن الرسول شاعر، ولذا فهم يتربصون به ريب المنون، ويقصدون بذلك: الموت، أو حوادث الدهر ونوائبه ومصائبه، بأن تنزل بساحته، وتقضي عليه وتهلكه(٣)، ولذا فهم يؤملون أن يحل به ما حل بالشعراء قبله، فهو من جملتهم وسيصيبه ما يصيبهم، والمعنى – كما يذكر الطبري– ﴿ هو شاعر نتربص به حوادث الدهر، يكفيناه بموت أو حادث ... قال ذلك قائلون من الناس تربصوا بمحمد الموت يكفيكموه كما كفاكم شاعر بني فلان، وشاعر بني فلان﴾ (٤)، وقد ذكر الرازي معنى لطيفا في الربط بين ريب المنون، وبين كونه شاعرا، وقد ذكر بصيغة السؤال والجواب، يقول ﴿ما وجه تعلق قوله ﴿ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ﴾ بقوله شاعر؟ وذلك أن العرب كان تحترز

(١) مفاتيح الغيب: ٢١٢/٢٨

(٢) انظر: نظم الدرر: ٢٢/١٩

(٣) انظر: أضواء البيان: ٤٦٠/٧

(٤) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٤٧٨/٢٢

عن إيذاء الشعراء، وتتقي ألسنتهم، فإن الشعر كان عندهم يُحفظ ويدون، وقالوا لا نعارضه في الحال مخافة أن يغلبنا بقوة شعره، وإنما سبيلنا الصبر، والتربص به ﴾ .[1]

جاء قوله – تعالى – ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ۝٣١ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٣٢ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ۝٣٤ ﴾ ردا على قولهم﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴾ ومعنى قل تربصوا أي ﴿ قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين يقولون لك ذلك إنك شاعر نتربص بك ريب المنون تربصوا أي انتظروا وتمهلوا فيّ ريب المنون، فإني معكم من المتربصين بكم حتى يأتي أمر الله فيكم ﴾ [2]

ودعوى نسبة الشعر إلى رسول الله ﷺ ظاهرة البطلان، لا تثبت لها حجة، ولا يسندها دليل ولا برهان، ولذا جاء النظم القرآني في ردها مؤكدا هذه الحقيقة ومقررا لها، من خلال طريقة الرد عليها، وبيان بطلانها، بل إن ترك الرد على الشيء رد، فهو في عداد المعدوم الذي لا قيمة له ولا زون، ومن هنا سلك القرآن في حجاجه طريقة أخرى في الرد على افتراءاهم على رسول الله ﷺ في زعمهم أنه شاعر، فقد ضرب عن ذلك صفحا، وأعرض عنه جملة وتفصيلا؛ إشارة إلى أنها من الضعف والتهافت، فقد أسقطت نفسها بنفسها، فهي لا تحتاج إلى رد ومجادلة، وانتقل إلى قضية أخرى، وذلك أن ﴿ انتفاء كونه شاعرا أمرا واضحا يكفي فيه مجرد التأمل لم يتصد القرآن للاستدلال على إبطاله، وإنما اشتملت مقالتهم على أنهم يتربصون أن يحل به ماحل بالشعراء

(١) مفاتيح الغيب: ٢١٢/٢٨

(٢) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٤٧٩/٢٢

الذين هم من جملة الناس، فأمر الله –تعالى– نبيه أن يجيبهم عن مقالتهم هذه بأن يقول لهم: تربصوا فإني معكم من المتربصين، وهو جواب منصف؛ لأن تربص حلول حوادث الدهر بإحدى الجانبين، أو حلول المنية مشترك الإلزام لا يدري أحدنا ماذا يحل بالآخر ﴾﴾ .(١)

وقد بلغ الحجاج مع المشركين مبلغا عظيما في رد افتراءاتهم في رسول الله ﷺ، في كونه شاعرا، لم يتوجه إلى الفرية نفسها بالرد والبطلان، بل جاراهم في خصومتهم، ومضى معهم في فريتهم، ولذا جاء قوله ﴿ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ قاطعا، وغاية في الحجاج والتبكيت لهم، فتربصوا أيها المشركون المعاندون، وهو أمر على سبيل التهديد والوعيد لهم بعاقبة افتراءاتهم، وفي مغبة دعواهم أن الرسول شاعر والمعنى: ﴿﴿تربصوا ذلك، فإنا نتربص بكم الهلاك، على حد قول السيد الغضبان لعبده: افعل ما شئت فإني لست عنك بغافل، وهو أمر لتهوين الأمر على النفس ﴾﴾ . (٢)

وللتوكيد حضوره وأثره الفاعل في تحقيق غرض الحجاج، وفي دحض الشبهات والافتراءات ولذا جاء قوله (فَإِنِّي مَعَكُم) مؤكدا، ولهذا التأكيد غاياته وأسراره في هذا المقام، ففيه قوة ودلالة على الثبات في الموقف، وانتصار للقضية، فإن كنتم تتربصون بي فإني أيضا متربص بكم على وجه اليقين والقوة، فقد دخلهم الغرور والكبرياء بأنفسهم وبعددهم وعتادهم فظنوا أنهم هم المتربصون به فقط، ولكن خاب ظنهم، فهو أيضا متربص بهم على وجه القوة واليقين، فهو أمر محقق ومؤكد، والمعية في قوله (معكم) تأكيد

(١) التحرير والتنوير: ٦٢/٢٧

(٢) مفاتيح الغيب: ٢١٢/٢٨

لتربصه بهم أيضا، سواء بسواء، ولن تمنعهم كثرتهم ولا قوتهم ولا عتادهم من تربصه بهم، ومن هنا جاء التوكيد في هذا المقام ليحقق هذا الأمور كلها ويقررها، وليقتلع جذور الشك والإنكار من قلوبهم، ويقذف فيها الخوف والهلع فهو متربص بكم كما تتربصون به، وتربصه بكم على سبيل القوة والجزم القاطع.

ويأخذ الحجاج مع هؤلاء القوم منحنى آخر، وأسلوبا مغايرا عما مضى، وذلك بكشف حقيقة نفوسهم وخبثها، وبيان الأسباب الحقيقة في رميهم رسول الله بهذه الافتراءات، والباعث لها بأسلوب بليغ، جزل قوي اقتضاها هذا الحجاج وتتطلبه، وذلك في قوله: ﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَامُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٣٢ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ ﴾، و" أم" بدلالتها على الانتقال والإضراب حاضرة في هذا المحاجة، وقد وظفت دلالاتها في بيان ما عليه القوم من طغيان وعدم إيمان، فهو يعلمون أنك لست بكاهن ولا ساحر، ويعلمون أنك لست بشاعر، فكيف تأمرهم عقولهم بهذا القول؟

وفي مجيء الإضراب بهذه الصياغة مزيد بلاغة وتقرير، فقد جاء بصيغة الاستفهام، وقد تضمن هذا الاستفهام معنى التعجب من حالهم، والإنكار عليهم وعلى مواقفهم من الرسول ﷺ، يتعجب ﴿من حالهم كيف يقولون مثل هذا القول السابق؟ ويستقر ذلك في إدراكهم؟! وهم يدعون أنهم أهل عقول لا تلتبس عليهم أحوال الناس، فهم لا يجهلون أن محمدا ليس بحال الكهان، ولا المجانين ولا الشعراء﴾ (١)، والأحلام هي العقول، دلالة على أن العقل هو من يضبط صاحبه، ويسيطر عليه، فيكون معه كالبعير المعقول، الذي لا يتحرك من

(١) التحرير والتنوير: ٦٣/٢٧

مكانه إلا بإذن صاحبه[١]،وفي الحديث عن عقولهم في مقام الحجاج إشارة مهمة، لها دلالاتها المراد الحديث عنها وتقريرها، فهي آلة الحجاج، وبها يكون النظر في العواقب، فالعقل هو الميزان في المنازعات والخصومات وفي المواقف كلها، ومن خلاله يكون الاختيار في المواقف كلها ﴿ وذلك لأن الأشياء إما أن تثبت بسمع، وإما أن تثبت بعقل، فقال هل ورد أمر سمعي؟ أم عقولهم تأمرهم بما كانوا يقولون؟ ... إشارة إلى أن كل ما لا يكون على وفق العقل لا ينبغي أن يقال، وإنما ينبغي أن يقال ما يجب قوله عقلا...وعلى هذا ففيه تأكيد لما ذكرنا أن الإنسان لا ينبغي أن يقول كل معقول، بل لا يقول إلا ما يأمر به العقل الرزين الذي يصحح التكليف ﴾ [٢]، ففي ذكر الأحلام هنا عتب من طرف خفي، ومغالبة لهم وحجاج عليهم، وقد ﴿كانت عظماء قريش توصف بالأحلام وهي العقول، فأزرى الله بحلومهم؛ إذ لم تثمر لهم معرفة الحق من الباطل﴾ [٣]،والمعنى كان الأولى أن تحملكم عقولكم وأنتم أهل الحجى والنهى إلى الإيمان به، والتصديق بما جاءكم به من عند رب العالمين، أما وقد كفرتم به، ووقفتم هذا الموقف المعاند فقد انسلختم من رجاجة عقولكم، وصارت كأحلام العصافير، ولذا بيّن القرآن باعث مواقفهم من الرسول ﷺ بأن عقولهم تقودهم، وتملي عليهم هذه الأقوال، وتلك المواقف، والمعنى: بل تأمرهم ﴿ عقولهم بهذا التناقض في القول؛ فإن الكاهن يكون ذا فطنة ودقة نظر، والمجنون مغطى عقله، والشاعر يكون ذا كلام موزون متسق

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٢٨/ ٢١٣

(٢) مفاتيح الغيب: ٢١٣/٢٨

(٣) زاد المسير: ١٧٩/٤

مخيل، ولا يتأتى ذلك من المجنون ﴾ [1]، فبئس العقول عقولهم التي تقودهم إلى الكفر والتكذيب، وإلا فيكف يجعلون أكمل الخلق عقلا، وأصدقهم منطقا مجنونا وشاعرا، فأي عقول عقولهم؟! وفي هذا دلالة أنهم عطلوا عقولهم، وانساقوا خلف أهوائهم، فطغوا وبغوا وتجاوزوا، ولذا جاء قوله – تعالى –﴿ أَمۡ هُمۡ قَوۡمٞ طَاغُونَ ٣٢ ﴾ تأكيدا وتقريرا لها، فالباعث الحقيقي لأقوالهم ومواقفهم طغيهم وبغيانهم، والمعنى: أنهم قوم طاغون معاندون، وبسبب طغيانهم قالوا عنك إنك ساحر وشاعر، فهذا هو الذي يحملهم على قول ما قالوا، ولذا فـ" أم" إضراب أيضا ﴿ عليهم وعلى عقولهم جميعا، وأنهم كيان من الطغيان يندفع كما تندفع الحمر المستنفرة فرت من قسورة، لا إرادة معها ولا اختيار لها في الوجهة التي تأخذها في فرارها ﴾ [2]، ومن هنا تتبين بلاغة الحجاج في القرآن الكريم، كيف وظف هذه الأساليب وهذه الحروف في بيان حقيقة القوم، وبيان ما هم عليه من العناد والطغيان، وبيان أسبابه وبواعثه، فماذا ترجو ممن طغى وبغى ورمى الأقاويل بكل صوب بلا عقل يضبطه، وبلا حكمة ينطلق منها، فلا غرو –والحالة هذه– أن تكثر منهم الأقاويل، وتتعدد منهم الافتراءات، ولكنها افتراءات باطلة، لا تثبت لها حجة، ولا تستند على دليل وبرهان.

ويمضي القرآن في ذكر مواقفهم من الرسول ﷺ، وينقضها عروة عروة، ويدحضها شبهة شبهة بأسلوب محكم يصل فيه الحجاج غايته، ويصل فيه إلى مبتغاه، فيقول عنهم –سبحانه –: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ٣٣ ﴾، جاءت " أم" هنا أيضا؛ لأن لها أثرا وتأثيرا في تحقيق غرض الحجاج، وفي

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١٥٥/٥

(٢) التفسير القرآني للقرآن: ٤٧٣/١٤

بيان حقيقتهم، وذكر بواعثهم، فهي أيضا بمعنى بل، وفيها معنى الانتقال والإضراب، وقد أفادت حين جاءت بصيغة الاستفهام توبيخهم، وإقرارهم بمواقفهم المخزية ضد الرسول ﷺ، ولذا فهي ﴿انتقال متصل بقوله (أم يقولون شاعر) وهذه حكاية لإنكارهم أن يكون القران وحيا من الله، فزعموا أنه تقوله النبي، فالاستفهام إنكار لقولهم، وهم قد أكثروا الطعن وتمالؤوا عليه، لذلك جيء في حكايته عنهم بصيغة "يقولون" المفيدة للتجدد ﴾ [1]، يزعمون أن الرسول ﷺ اختلق القرآن وافتراه وجاء به من عند نفسه، وفي التقول تكلف، ولا يكون إلا في الكذب[2]، وهذا خبث منهم ودهاء أن رموا الرسول ﷺ بالكذب والاختلاق، وفي ذلك إنكار منهم أن يكون القرآن منزلا عليه من رب العالمين؛ لأن التقول أن تنسب لأحد كلاما لم يقله[3]، هذا فريتهم، وهذا زعمهم أن الرسول شاعر وقد جاء بالقرآن من تلقاء نفسه فقد تقوله، فجاءهم الرد بنقض حجتهم، ورد افتراءاهم بقوله: ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾تقوله، فجاءهم الرد بنقض كل افتراءاتهم ومزاعمهم في الرسول وفي القرآن، فكان آية الحجاج، فإن كان محمد قد تقول القرآن كما تزعمون فما الذي يمنعكم أن تأتوا بمثل ما جاء به، إن كنتم صادقين في دعواكم أن محمد تقوله وافتراه وجاء به من عند نفسه في كونه شاعرا وساحرا وكاهنا؟!

وقد أظهر الحجاج في هذا المقام فعل الأمر ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ ﴾بدلالته على التعجيز، فيكاد يؤول غرض الحجاج إلى التعجيز والتسليم، وقد أظهر هذا المعنى حرف

(١) التحرير والتنوير: ٦٥/٢٧

(٢) انظر: زاد المسير في علم التفسير: ١٩٧/٤

(٣) انظر: التحرير والتنوير: ٦٥/٢٧

الفاء، بدلالته على التعقيب، والمعنى فإن كان الأمر كما تقولون بأن محمدا تقول هذا القرآن فلتأتوا بمثله؛ ففيكم الشعراء، والكهنة الأذكياء؛ فقد ملكتم ناصية البيان: شعرا ونثرا [1]، فما الذي يحول بينكم وبين أن تأتوا بمثل هذا القرآن كيف وأنتم العرب الفصحاء، والفحول البلغاء؟! وفي هذا إلهاب لحماستهم، وإثارة لحميتهم، فإن لم يأتوا بمثله فقد بان عجزهم، وقامت الدلائل على كذبهم، فيكون بذلك حاجهم، ودحض كل افتراءاتهم في كون الرسول شاعرا.

ولذا فقوله ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ حجة دامغة، وآية في الحجاج وإسكات الخصم وإفحامه، والغاية التي لا مرمى بعدها في التبكيت، فقد جاءت ردا على زعمهم أن الرسول تقول هذا القرآن، واختلقه من تلقاء نفسه، وكان ذلك منهم ﴿ طعنا في القرآن، وهو المعجزة القائمة على صدق رسالة محمد، وكانت دعواهم أنه تقوّل على الله من تلقاء نفسه قد تروج على الدهماء، تصدى القرآن لبيان إبطالها بأن تحداهم بأن يأتوا بمثل هذا القران بقوله ﴿ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ أي صادقين في أن محمدا تقوله من تلقاء نفسه، فعجزهم عن أن يأتوا بمثله دليل على أنهم كاذبون، ووجه الملامة: أن محمدا أحد العرب وهو ينطق بلسانهم، فالمساواة بينه وبينهم في المقدرة على نظم الكلام ثابتة، فلو كان القران قد قاله محمد لكان بعض خاصة العرب البلغاء قادرا على تأليف مثله، فلما تحداهم الله بأن يأتوا بمثل القران وفيهم بلغاؤهم وشعراؤهم، وكلمتهم وكلهم واحد في الكفر كان عجزهم عن الإتيان بمثل القران دالا على عجز البشر عن الإتيان بالقران ﴾

(١) انظر: مفاتيح الغيب: ٢١٤/٢٨ .

[1]، وفي ذلك قطع لمعاذيرهم كلها، ودحض لكل افتراءاتهم، ومن هنا تتجلى بلاغة القرآن في تحقيقه لغرض الحجاج، فقد بلغ الذروة فيه، وتربع على سنامه.

وفي قوله ﴿ بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ ۝٣٣ ﴾ إشارة إلى السبب الحقيقي وراء مواقفهم من الرسول ومن القرآن الكريم، وبيان للسبب الحقيقي في زعمهم أن الرسول شاعر، وأن القرآن شعر، وهو عدم إيمانهم، فقد أعمى الكفر أبصارهم، وغطى بصيرتهم عن قول الحق، ورؤية الحق، وبسبب كفرهم وعدم إيمانهم ((يرمون بهذه الأباطيل التي لا يخفى على أحد بطلانها، كيف لا وما رسول الله إلا واحد من العرب فكيف أتى بما عجز عنه كافة الأمم من العرب والعجم)) [2]، بل ولن يؤمنوا، ولن يصدقوا بالقرآن، ولن ينقادوا للحق الذي جاءهم به الرسول من عند ربهم، وسيموتون على الكفر، فلن يهتدوا بالقرآن ولن ينتفعوا به بسبب عنادهم وافتراءاتهم في حق رسول الله في زعمهم أنه كاهن وساحر وشاعر.[3]

ومن هنا فقد بلغ الحجاج غايته في بيان الأسباب الحقيقية وراء مواقف المشركين في نسبتهم الشعر إلى رسول الله، فتتوقف الحجج، ويتوقف النقاش والحوار حين يكون الكفر سائد الموقف، وهذا وجه من وجوه بلاغة القرآن وإعجازه في حجاجه، وفي مقارعة الحجة بالحجة.

(١) التحرير والتنوير: ٦٥/٢٧

(٢) إرشاد العقل السليم: ١٥٠/٨

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن: ٤٧٣/١٤

الموضع الخامس:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ٣٩ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٣ ﴾ [الحاقة: ٣٨ -٤٣]

وردت هذه الآيات في سورة الحاقة، وهي سورة مكية أيضا، ولهذا الأمر دلالته المهمة في موضوع الحجاج، فيكاد يكون الحجاج ظاهرة أسلوبية في العهد المكي، فقد طال في هذا العهد نقاشات المشركين وافتراءاتهم، وقد تعددت تلك الافتراءات وتنوعت في حق رسول الله ﷺ، وفي القرآن الكريم، في زعمهم أن الرسول شاعر، وأن القرآن شعر، وقد تنوع تبعا لذلك طريقة القرآن الكريم في الرد على تلك الافتراءات، ونقض تلك الشبهات فكان بلاغة في الحجاج، وقد وُظفت أساليب الآيات البلاغية في إظهار هذا الحجاج وتحقيقه، كما تجلى هذا في الشواهد السابقة، وفي هذا الشاهد، وفيما يأتي بيان ذلك وتفصيله.

وفي الاستفتاح بقوله ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ تأكيد لحقيقة الرسول – عليه الصلاة والسلام – ورد وتكذيب لكل أقوالهم ومزاعمهم فيه، والمعنى: ﴿ما الأمر كما تقولون معشر أهل التكذيب بكتاب الله ورسوله، أقسم بالأشياء كلها التي تبصرون منها، والتي لا تبصرون، وما هو بقول شاعر يقول جل ثناؤه ما هذا القران بقول شاعر؛ لأن محمدا لا يحسن قول الشعر فتقولوا هو شعر ﴾ (١)،

(١) جامع البيان عن تأويل آي القرآن: ٢٣/٥٩١

وفي الاستفتاح الفريد بقوله ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾ حجة قاطعة ودلالة على ما بلغه القوم من التكذيب والإنكار، ففي نفي القسم إثبات له، طريقة من طرق القرآن البديعة في المخاصمة والحجاج، فهو إثبات بصورة النفي، والمعنى أقسم، فتكون لا مزيدة لتأكيد القسم وتقويته، وبلاغة نفيه إشارة إلى ظهور هذا الأمر واستغنائه عن التوكيد والأقسام، فهي حقيقة مقررة لا ينكرها إلا جاحد.(١)

ولتأكيد هذا القسم وتحقيقه جاء شاملا محيطا بكل شيء فلن تجد أبلغ من قوله ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَا تُبۡصِرُونَ ٣٨ وَمَا لَا تُبۡصِرُونَ ﴾، فقد شمل كل شيء لأن الكائنات والمخلوقات كلها لا تخرج عن هذين القسمين أبدا: مشاهدة وغير مشاهدة، والمعنى:« أن الله يقسم لخلقه بما يشاهدونه من آياته في مخلوقاته الدالة على كماله في أسمائه وصفاته، وما غاب عنهم مما لا يشاهدونه من المغيبات عنهم أن القران كلامه ووحيه وتنزيله على عبده ورسوله الذي اصطفاه لتبليغ الرسالة وأداء الأمانة »(٢)، وفي هذا القسم وبهذه الطريقة دحض لافتراءاتهم المتعددة في رسول الله ﷺ، وتأكيد أنه ليس بشاعر، وأن القرآن ليس بشعر، وجاء تأكيد ذلك وتقريره والتصريح به في بيان حقيقة الرسول قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ٤٠ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ٤١ وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ٤٢ ﴾ فمادام هو رسولا كريما فمحال والحالة هذا أن يكون شاعرا، ومحال أن يكون قوله شعرا، ومن هنا يتبين ارتباط هذين الوصفين لرسول الله ﷺ في تحقيق غرض الحجاج، فقد ذُكر هذان الوصفان في مقام الرد، وإبطال شبههم،

(١) انظر: إرشاد العقل السليم: ٢٧/٩

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢١٧/٨ .

ودحض افتراءاتهم في رسول الله ﷺ، فهو رسول مرسل من ربه، يقول ما يأمره به ربه أن يقوله ويبلغ، ولا يكون ذلك من تلقاء نفسه(١)، وفي لفظة "رسول" تأكيد لك ففيها ﴿ إيذان بأن القول قول مرسله، أي الله –تعالى– وقد أكد هذا المعنى بقوله عقبه تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (٢)، وفي وصفه عليه السلام بكريم قطع لتلك الأقاويل، ودحض لتلك الافتراءات التي تزعم أنه شاعر، فلهذا الوصف دلالته في تحقيق غرض الحجاج في هذه الآيات؛ وذلك أن ﴿ الموقف هنا موقف دفاع عن الرسول، ورد على اتهام المشركين به بأنه كاهن وبأنه شاعر، فكان المقام يقتضي بأن يوضع الرسول ﷺ بموضعه الصحيح وهو أنه رسول كريم، وأن ما ينطق به ليس من منطق الكهانة، ولا الشعر وإنما هو منطق مبعوث كريم من رب العالمين يبلغ ما أرسل به إلى عباد الله، وفي وصف الرسول بأنه كريم إشارة إلى أنه يقدم هذا الخير العظيم للناس في سخاء ويبذله في غير منّ، لا يطلب عليه أجرا ﴾. (٣)

وفي تأكيد الخبر بأن واللام في قوله (إِنَّهُۥ لَقَوْلُ) تقرير لتلك الحقيقة، فتلك هي حقيقة رسول الله، وتلك هي صفاته، ومن هنا جاء الخبر مؤكدا ليقرر هذه الحقائق ويثبتها، وللتوكيد قوته وحضوره في مقام المنازعات، وأدلة مهمة في تحقيق غرض الحجاج، ففيه قوة رد على الذين كذبوا أن يكون القرآن من عند الله، ونسبوه إلى الرسول زاعمين أنه شاعر، اختلقه من تلقاء نفسه(٤)،

(١) انظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ٢٤٢/٥

(٢) التحرير والتنوير: ١٤١/٢٩

(٣) التفسير القرآني للقرآن: ١١٤٩/١٥

(٤) انظر: التحرير والتنوير: ١٤١/٢٩

ولأنه رسول كريم فمحال أن يكون شاعرا أو كاهنا كما يقولون ويزعمون، ولذا جاء رد ذلك صريحا في قوله ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ وفي هذا تأكيد لمصدر القرآن الكريم، وأنه من عند الله رب العالمين، ولم يختلقه محمد من عند نفسه، والمعنى المراد تقريره: ﴿ أن هذا القران ليس بقول رجل شاعر، ولا هو من ضروب الشعر ولا تركيبه، قليلا ما تؤمنون، أراد بالقليل عدم إيمانهم أصلا، والمعنى: أنكم لا تصدقون بأن القران من عند الله، ولا بقول كاهن، وليس هو بقول رجل كاهن، ولا هو من جنس الكهانة، قليلا ما تذكرون يعني لا تتذكرون البتة﴾ [(١)]، فأنى للرسول الكريم أن يكون شاعرا أو كاهنا؟! ومن هنا يظهر تناقضهم في دعواهم، ويظهر معه بلاغة حجاج القرآن كيف دحض شبهتهم في زعمهم أن الرسول شاعر، فألفاظه –عليه الصلاة والسلام – ومعانيه والشعر لا يلتقيان أبدا، فبينهما ما بين المشرقين، فكيف يلتقي الوحي والحقائق مع الخيالات والمبالغات؟! فأين هذا من ذاك.[(٢)]

وقوله (قليلا) من باب التنزل مع الخصم واستدراجه، وإلا فهي بمعنى العدم وليس القلة، وإلا فالمراد منها النفي القاطع، والمراد به: ﴿ انتفاء ذلك من أصله على طريقة التلميح القريب من التهكم، كقوله: (فلا يؤمنون إلا قليلا) وهو أسلوب عربي، والمعنى لا تومنون ولا تذكرون أي عند ما تقولون هو شاعر وهو مجنون﴾ . [(٣)]

---

(١) لباب التأويل في معاني التنزيل: ٣٣٧/٤

(٢) انظر: محاسن التأويل : ٣١٣/٩

(٣) التحرير والتنوير: ١٤١/٢٩

وتتبقى مسألتان في قضية نفي الشعر عن رسول الله ﷺ في هذه الآيات ولهما علاقتهما الوثيقة في تحقيق غرض الحجاج وإبرازه في هذا المقام، المسألة الأولى: ما سرّ نفي الإيمان عنهم في الآية الأولى، ونفي التذكرة في الآية الثانية؟ ما علاقة نفي الإيمان عنهم بادعائهم أن الرسول شاعر؟ وما علاقة نفي التذكر عنهم بادعائهم أن الرسول كاهن؟

ذكر المفسرون كثيرا من الحكم في هذا الارتباط، وبينوا سرّ هذا المجيء، وظهر من كلامهم كثير من الأسرار والحكم المتعلقة بأمر الحجاج، ومرتبطة به، فكان نظام الآيات ونظمهما آية في الحجاج والإقناع، وبيان ذلك أن: ((نفى الإيمان في الأول، والذكرى في الثانية؛ لأن عدم مشابهة القران للشعر أمر بيّن لا ينكره إلا معاند فلا عذر لقائله في ترك الايمان، وهو أكفر من حمار، وأما مباينته للكهانة فيتوقف على تذكر ما؛ لأن الكاهن يأخذ جعلا، ويجيب عما سئل عنه، ويتكلف السجع، ويكذب كثيرا، وأن التبس على الحمقى لإخباره عن بعض المغيبات بكلام منثور فتأمل)) [1]، وفي قوله فتأمل مخاطبة للعقل الذي هو أداة الحجاج، وسبيل الإقناع إشارة إلى أن لهذا الارتباط علاقة وثيقة بغرض الحجاج، وفي هذا دلالة أن الباعث على قولهم إن الرسول شاعر هو الكفر وليس شيء سواه، ولا يخفى عليهم مباينة القرآن عن الشعر فهي واضحة وضوح الشمس لا تحتاج إلى طول تأمل، ولكنكم تنكرون هذه الحقيقة، وترفضون الإيمان بها، وفي قرارة أنفسكم اليقين والإيمان أنه رسول من عند رب العالمين، وأن الذي يقوله قرآن، وليس شعرا، فما هو بشاعر،

(١) محاسن التأويل: ٣١٤/٩

ولكن كفرهم يأبى عليك الإيمان والإقرار ولذا جاء قوله (قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ) إشارة إلى هذه المعاني، وتقريرا لها.

المسألة الثانية: كثرت افتراءات المشركين في رسول الله ﷺ ، فمرة هو شاعر، ومرة هو مجنون، ومرة يتهمونه بالافتراء، ومرة بالكهانة، وفي هذه الآيات جاء بيان حقيقة الرسول ﷺ ، والرد على قولهم إنه شاعر وكاهن، فما سر الرد على هذين الفريتين دون غيرهما، وما سبب ذكرهما في هذا المقام، والاقتصار عليهما؟ اقتضى هذا الأمر دون سواه سياق هذه الآيات، وارتباطه بالغرض المسوق له، فقد ذكرت الآيات في مقام الرد على افتراءاتهم، وفي بيان حقيقة الرسولﷺ، وجل تلك الافتراءات ظاهر عوارها، بيّن بطلانها، وأما الشعر والكهانة فقد ﴿ خص هذان بالذكر دون قولهم افتراه او هو مجنون؛ لأن الوصف بكريم كاف في نفي أن يكون مجنونا أو كاذبا؛ اذ ليس المجنون ولا الكاذب بكريم، أما الشاعر والكاهن فقد كانا معدودين عندهم من أهل الشرف﴾ [1]، ومن هنا يتبين أثر ذلك بالحجاج، فحين ينفي عنه هاتين الصفتين فغيرهما أولى: عقلا ومنطقا، وهكذا بدأ الأمر وانتهى بالحجاج والإقناع، فسيتبن سبب الاقتصار على نفي هاتين الصفتين لمن كان له عقل يتأمل، وإن لم يكن منه التأمل والإيمان فيحصل معه الحجاج والإقناع فقد قامت الحجة، وتمايزت الأمور، ولكنه الكفر الذي غطى بصائرهم، وأعمى أبصارهم.

ولذا جاء ختام هذه الآيات صريحة بحقيقة هذا القرآن وبيان مصدره في قوله ﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾

(١) التحرير والتنوير: ١٤٢/٢٩

ففي بيان مصدرية هذا القرآن، وأنه منزل من عند الله قطع لكل افتراء، وحجة دامغة، ورد على كل شبهة، وقد بلغ الحجاج غايته، وحقق مراده، فهو كلام رب العالمين تكلم به، وأنزله على رسوله، فليس هو من كلام البشر، وعليه فليس الرسول شاعر ولا كاهنا كما تقولون وتزعمون.(١)

وفي مجيء لفظة (تَنزِيلٌ) تأكيد لذلك وتقرير، فهي خبر لمبتدأ محذوف، يدل عليه السياق، والتقدير هو تنزيل، أي القرآن الكريم، وهو عطف على قوله ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿٤٠﴾ ﴾ ففيها بيان لحقيقة القرآن الكريم، بعدما بيّن لهم حقيقة الرسول، فما القرآن بشعر، ولا الرسول بشاعر.(٢)

وفي قوله ﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ تأكيد أيضا على مصدرية القرآن، وتبرئة أن يكون الرسول شاعرا، فالذي أنزل هذا القرآن هو ربكم ورب الناس جميعا، فقد ربي عباده على نعمه، وأحاط بهم بآلائه، وتكفل بأمور معادهم ومعاشهم، ومن خير ما يربيهم عليه، ويرشدهم إليه القرآن الكريم، ولذا أنزل عليهم، وأمر رسوله أن يبلغه إياهم، فما هو إلا رسول من رب العالمين، الذي رباهم بصنوف النعمة فهو: ﴿موجدهم ومدبرهم بالإحسان إليهم بما يفهم كل منهم من هذا الذكر الذي رباهم به، ورتب – سبحانه– نظمه على وجه سهله على كل منهم شيئا يكفي في هدايته البيانية، بخلاف الشعر والكهانة فإنه لا يفهمها إلا قليل من الناس لا جميع العالمين﴾(٣)، فهده حقيقة القرآن، وهذا مصدره، فكيف يكون – والحالة هذه – شعرا، كما يزعمون ذلك ويفترون، خابوا وخسروا، فما القرآن شعر، ولا الرسول بشاعر، وقد تم بيان هذه الحقائق

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن: ١١٤٩/١٥ .
(٢) انظر: اللباب في تفسير القرآن: ٣٤٣/١٩
(٣) نظم الدرر: ٣٧٩/٢٠

بهذا الأسلوب البليغ، فكان غاية في الحجاج، ومعجزة في البيان، وبسببه عجزوا عن معارضته، والإتيان بمثله، فما وجدوا شيئا يحفظ ماء وجوههم إلا هذه المزاعم والافتراءات في حق رسول الله –صلى الله عليه وسلم –.

الخاتمة

فها هي خاتمة البحث، ونهاية المطاف مع هذه الصـــحبة العلمية لهذه الآيات المباركات التي نفت عن رسول اللهﷺ الافتراءات، ورد عنه الشبهات التي صدرت من المشركين في حقه عليه الصلاة والسلام، فقد زعموا وافتروا أنه شاعر، فكان الحجاج في هذا الآيات حاضرا وبارزا يقارع الحجة بالحجة، ويدحض كل افتراء وشبهة، ومن هنا جاءت هذه الدراسة في بيان خصائص الحجاج القرآني، في هذه الآيات، وقد خرجت من هذا البحث بكثير من النتائج العلمية ولله الحمد، ومن أهمها ما يأتي:

أولا: أن جميع الآيات التي وردت فيها افتراء المشركين على الرسولﷺ في كونها شاعرا كلها سور مكية، ولهذا الأمر دلالته المهمة في موضوع الحجاج، فيكاد يكون القرآن وكذلك الرسولﷺ من أكثر الموضوعات التي دار فيها جدالهم، وطال فيها نقاشهم، فكان القرآن وكذلك الرسول هما الشغل الشاغل لدى المشركين، وقد سعوا بكل ما أوتوا إلى رميه بالافتراءات، والمزاعم الباطلة.

ثانيا: تبين أن الحجاج عنصر حاضر ومهم في العهد المكي، فقد كان حاضرا في أغلب آياتها، وفي جل موضوعاتها، وكان مؤثرا في مخاطبة عقولهم إن كانوا يعقلون، وله حضوره القوي في الإقناع والتأثير، وكان الغرض منه التأثير عليهم، واستمالة قلوبهم، وقيام الحجة عليهم، وبيان سفاهة عقولهم.

ثالثا: لم يكن غرض المشركين في نسبة الشعر إلى رسول اللهﷺ مقصودا لذاته، بل كانت وسيلة إلى إبطال إعجاز القرآن، وإنكار كونه قرآنا منزلا من رب العالمين، ولذا جاء الرد عليهم يبطل كل أغراضهم ومقاصدهم، ولذا لم

يكن نفي الشعر عن الرسولﷺ مقصودا لذاته، بل لتنزيه القرآن من الافتراءات والاتهامات .

رابعا: كان الحجاج عنصرا بارزا في هذه الآيات، ظهر جليا بكل خصائصه وسماته، فكان حاضرا في هذه الآيات كلها، يفند حججهم، ويدحض شبههم، وقد اقتضى حضوره المقام الذي ورد فيه، والسياق الذي جاء فيه، فهو مقام مقارعة وخصام وجدال، ولذا اقتلعت جذور الكذب والإنكار من قلوبهم وعقولهم معا.

خامسا: يكاد يكون الإبطال والانتقال حاضرا في آيات الدراسة كلها، فـ(أم وبل) بدلالتهما على الإبطال والانتقال حاضران في شواهد الدراسة، وقد تم توظيفهما في دحض افتراءات المشركين في نسبة الشعر إلى الرسول – عليه الصلاة والسلام –، وقد اقتضى الحجاج وجود الإبطال والانتقال، فالحجاج قائم على نقض حججهم ورد شبهاتهم، والانتقال منها إلى بيان الحقائق وإظهارها.

سادسا: في آيات نفي الشعر عن رسول الله ﷺ برز أسلوب القصر فيها كثيرا، فكان له حضوره، وقد اقتضاه المقام، وتطلبه غرض الحجاج، لما لأسلوب القصر من قوة لما يتضمنه من نفي وإثبات، فله قوته وتأثيره على المخاطبين، وكثر وروده بطريق النفي والاستثناء؛ لاختصاص هذا الطريق بمقامات الإنكار والخصام والمواجهة والمجاباة، وهي عناصر رئيسة لغرض الحجاج.

سابعا: برزت في شواهد الدراسة كثير من الأساليب البلاغية التي تحقق غرض الحجاج، وتقوم به على أكمل وجه، ومن تلك الأساليب: النفي

والاستفهام والتوكيد، ولا غرو أن تحضر هذه الأساليب في هذه الآيات فلها أثرها – بما تمتلك من خصائص بلاغية – في التأثير والإقناع، وتضفي على الكلام قوة وحجة.

وأوصي في خاتمة هذه الدراسة إلى التفات الباحثين والدراسين لموضوع الحجاج، وإبراز هذا الموضوع المهم في الدراسات البلاغية: تنظيرا وتطبيقا، وللحجاج حضوره في البيان النبوي، وقد جاء ذلك من تأثر رسول الله ﷺ بأسلوب القرآن الكريم، فأدعو إلى دراسة بلاغة الحجاج في البيان النبوي، وفي كتب إعجاز القرآن، والله أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات

ثبت المصادر والمراجع

١. اِلإيضـاح، للخطيب القزويني، دار إحياء الكتب الإسـلامية، بيروت، (د . ت).

٢. إرشـاد العقل السـليم إلى مزايا القرآن الكريم، لأبي السـعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د . ت).

٣.أسـاس البلاغة، لجاء الله الزمخشـري، دار ومطابع الشـعب، القاهرة: ١٩٦٠م .

٤.أسـاليب القصـر في القرآن الكريم وأسـرارها البلاغية. صـباح عبيد دراز، مطبعة الأمانة، مصر، ط: الأولى: ١٤٠٦هـ .

٥. أضـواء البيان في إيضـاح القران بالقران، محمد الأمين بن محمد المختار الشـنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشـر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤١٥هـ

٦. أنوار التنزيل وأسـرار التأويل، ناصـر الدين أبو سـعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشـيرازي البيضـاوي تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشـلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٨هـ

٧. البحر المحيط البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف الاندلسي، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر بيروت، ١٤٢٠هـ

٨. البيان والتبين ،لأبي عثمان الجاحظ، تحقيق: عبدالسـلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط: الخامسة: ١٤٠٥هـ .

٩. تاريخ آداب العرب، مصطفى صادق الرافعي، دار الكتب العربي، بيروت، لبنان، ١٣٩٤هـ

١٠. تأويل مشكل القرآن، لأبي عبيد بن مسلم بن قتيبة، شرحه ونشره السيد أحمد صقر، دار التراث القاهرة، ط: الثانية: ١٣٩٣هـ .

١١. التحرير والتنوير تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس:١٩٨٤ هـ

١٢. تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

١٣. التفسير الحديث: المؤلف: دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة: ١٣٨٣ هـ

١٤. تفسير القرآن العظيم، للحافظ عماد الدين ابن كثير، قدم له عبدالقادر الأرناؤوط، دار السلام، الرياض، ط: الأولى: ١٤١٣هـ .

١٥. التفسير القرآني للقرآن، لعبدالكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة .

١٦. تفسير المراغي، لأحمد بن مصطفى المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى: ١٣٦٥هـ، ١٩٤٦ م

١٧. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن بن ناصر السعدي، تقديم: محمد النجار، تصحيح: محمد البسام، دار المدني، جدة، ١٤٠٨هـ .

١٨. جامع البيان عن تأويل آي البيان، لابن جرير الطبري، تحقيق الدكتور عبدالله التركي، مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١ م

١٩. الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، عبدالله صولة، جامعة منوبة، منشورات كلية الآداب، بمنوبة، ٢٠٠١م

٢٠. دلائل الإعجاز، لعبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه محمود شاكر، دار المدني، جدة، ط: الثالثة: ١٤١٣هـ .

٢١. روح البيان: روح البيان، إسماعيل حقي مصطفى الاستانبولي الحنفي، دار الفكر بيروت

٢٢. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ.

٢٣. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق: محمد محيي الدين عبدالحميد، دار الجيل، الطبعة الخامسة:١٤٠١ هـ ١٩٨١ م

٢٤. فتح البيان في مقاصد القرآن، لأبي الطيب محمد صديق البخاري القنوجي، عني بطبعه وقدم له وراجعه خادم العلم عبدالله بن إبراهيم الأنصاري.

٢٥. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية في علم التفسير، لمحمد بن علي الشوكاني، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٣هـ .

٢٦. الكشـــاف في حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، لأبي القاسـم جار الله محمود الزمخشـري، مطبعة مصـطفى البابي الحلبي وأولاده، ١٣٩٢هـ

٢٧. لســـان العرب، لابن منظور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: الثالثة: ١٤١٣هـ .

لباب التأويل في معاني التنزيل، علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم الشيحي أبو الحسن المعروف بالخازن، تصحيح محمد علي شاهين، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى

٢٨. اللباب في علوم الكتاب، أبو حفص ســـراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشـــقي تحقيق: الشـــيخ عادل أحمد عبدالموجود، والشيخ علي محمد معوض،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ

٢٩. المثل الســائر في أدب الكاتب والشــاعر، لضــياء الدين ابن الأثير، قدمه وعلق عليه: د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، نهضــة مصــر للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٠. محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن قاسم القاسمي، تحقيق: محمد باســـل عيون الســـود، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ

٣١. المحرر الوجيز في تفســـير الكتاب العزيز، لأبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤١٣هـ

٣٢. مختار الصـــحاح، لمحمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٧م

٣٣. معالم التنزيل في تفسير القرآن، لمحيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، حققه وخرج أحاديثه محمد بن عبدالله النمر، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ

٣٤. مفاتيح الغيب: التفســير الكبير، أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي الملقب بفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي بيروت، الطبعة الثالثة: ١٤٢٠ هـ

٣٥. معالم التنزيل، للبغوي، إعداد وتحقيق: خالد عبدالرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة، بيروت، ط: الثانية: ١٤٠٧هـ .

٣٦. معترك الأقران في إعجاز القرآن، للســيوطي، تحقيق: أحمد شــمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط: الأولى: ١٤٠٨هـ .

٣٧. كتاب نضــرة الإغريض في نصــرة القريض: للمظفر بن الفضــل بن يحيى ايو علي العلوي الحسيني العراقي.

٣٨. نظم الدرر في تناســب الآيات والســور، لبرهان الدين البقاعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ط: الثانية: ١٤١٣هـ .

فهرس الموضوعات

الموضوع
ملخص البحث
أهمية الموضوع وسبب الاختيار
أهداف الدراسة
منهج البحث
خطة البحث
المبحث الأول: الحجاج: تعريفه وأهميته
أولا: تعريف الحجاج
ثانيا: أهمية الحجاج في الدرس البلاغي.
ثالثا: لمحة موجزة عن وجود الحجاج في الدرس البلاغي
رابعا: آيات نفي الشعر عن الرسول ﷺ
المبحث الثاني: خصـــائص الحجاج القرآني في آيات نفي الشـــعر عن الرسول ﷺ
الموضع الأول: قوله – تعالى –﴿ وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ ﴾

الموضـــع الثاني: قوله – تعالى–﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾
الموضع الثالث:قوله – تعالى–﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٖ مَّجۡنُونِۭ ﴾
الموضع الرابع:قوله – تعالى–﴿ أَمۡ يَقُولُونَ شَاعِرٞ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ﴾
الموضع الخامس:قوله – تعالى–﴿ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ ﴾
الخاتمة
ثبت المصادر والمراجع
فهرس الموضوعات